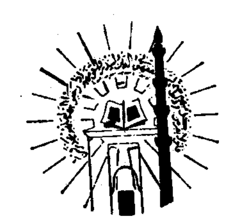


من مطبوعات الجامعة الاسلامية
بالمدينة المنورة ١٣٩٦ هـ
-٧-

مسائل الجاهلية

التي خالف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الجاهلية

ألف أصلها
الإمام شيخ الإسلام
محمد بن عبد الوهاب
وتوسع فيها على هذا الوضع علامة العراق
السيد محمود شكري الألوسي

طبع في
مؤسسة مكة للطباعة والاعلام

توزيع الجامعة الاسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى هدانا للدين المبين ، وأنار لنا الصراط المستقيم * والصلاة والسلام على سيد الاولين والآخرين ، وعلى آله وأصحابه الغرّ الميامين

أما بعد فيقول العبد المفتقر الى عفو الله وغفرانه محمود شكرى الألوسى البغدادى كان الله تعالى له ، وأحسن عمله : انى قد وقفت على رسالة صغيرة الحجم كثيرة الفوائد تشتمل على نحو مائة مسألة من المسائل التى خالف فيها رسولُ الله ﷺ أهلَ الجاهلية من الاميين والكتابيين ، وهى أمور ابتدعوها ما أنزل الله بها من سلطان ولا أُخذتْ عن نبى من النبيين . ألفها الإمام محيي السنَّة ، ومجدّد الشريعة النبوية ، أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب النجدى الحنبلى تغمده الله تعالى برحمته . فرأيتها فى غاية الايجاز ، بل كادت تعدُّ من قبيل الالغاز . قد عبر عن كثير منها بعبارة مجملة ، وأتى فيها بدلائل ليست بمشروحة ولا مفصلة . حتى إن من ينظرها ليَظن أنها فهرس كتاب ، قد عُدَّت فيه المسائل من غير فصول ولا أبواب ، ولاشتمالها على تلك المسائل المهمة الآخذة بيد المتمسك بها الى منازل الرحمة ، أحببتُ أن أعلق عليها

شرحاً يفصل مجملها ويكشف معضلها من غير ايجاز مخل ولا إطناب ممل. مقتصراً فيه على أوضح الاقوال، ومبيناً ما أورده من برهان ودليل، عسى الله أن ينفع بذلك المسلمين، ويهدىَ به من يشاء من عباده المتقين. فيكون سبباً للثواب، والفوز يوم العرض والحساب، والأمن من أليم العذاب، وما توفيقى الا بالله، عليه توكلت واليه أُنيب

بسم الله الرحمن الرحيم

قال المصنف رحمة الله تعالى عليه :

هذه مسائل خالف فيها رسولُ الله ﷺ ما عليه أهل الجاهلية الكتابيين والاميين مما لا غنى لمسلم عن معرفتها، فالضد يظهر حسنه الضدُّ، وبضدها تتميز الأشياء. وأهم ما فيها وأشدُّه خطراً عدم إيمان القلب بما جاء به الرسول ﷺ، فان انضاف الى ذلك استحسان دين الجاهليـة والايمان به تمت الخسارة والعياذ بالله تعالى، كما قال تعـالى (العنكبوت ٥٢): ﴿ والَّذينَ آمَنُوا بِالباطِلِ وكَفَرُوا باللهِ أولئِكَ هُمُ الخاسِرُون ﴾

دعاء الصالحين

(المسألة الاولى): انهم يتعبدون باشراك الصالحين فى دعاء الله

تعالى وعبادته ، ويرون ذلك من تعظيم الصالحين الذى يحبه الله ، ويريدون بذلك شفاعتهم عند الله لظنهم أنهم يحبون ذلك كما قال تعالى فى أوائل الزمر ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ، أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ، وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ، وقال تعالى (يونس ١٨) : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَالاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ وهذه أعظم مسألة خالفهم فيها رسول الله ﷺ ، فأتى بالاخلاص ، وأخبرهم أنه دين الله الذى لا يقبل من أحد سواه ، وأخبر أن من فعل ما يستحسنونه فقد حَرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار . وهذه المسألة هى الدين كله ، ولأجلها تفرّق الناس بين مسلم وكافر ، وعندها وقعت العداوة ، ولأجلها شُرع الجهاد ، كما قال تعالى فى البقرة (١٩٣) : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾

التفرّق

(الثانية) : انهم متفرقون ، ويرون السمع والطاعة مهانة ورذالة . فأمرهم الله بالاجتماع ، ونهاهم عن التفرقة فقال عز ذكره (آل عمران ١٠٢-١٠٣) : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ

إلاَّ وأنتُمْ مُسْلِمُون . واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً ولا تَفَرَّقُوا ، واذْكُروا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيكم إذْ كُنْتُمْ أعْداءً فألَّفَ بينَ قُلوبِكُمْ فأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إخوانًا وكنتمْ على شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النارِ فأنقذَكُمْ مِنها ، كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لكمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُون ﴾ يقال أراد سبحانه بما ذكر ما كان بين الأوْس والخَزْرَج من الحروب التى تطاولت مائة وعشرين سنة ، الى أن ألّف سبحانه بينهم بالاسلام ، فزالت الأحقاد . قاله ابن اسحاق . وكان يوم بُعاث آخر الحروب التى جرت بينهم ، وقد فصّل ذلك فى (الكامل) . ومن الناس من يقول : أراد ما كان بين مشركى العرب من التنازع الطويل والقتال العريض ، ومنه حرب البسوس ، كما نقل عن الحسن رضى الله عنه . وقال تعالى (التغابن ١٦) : ﴿ فاتَّقُوا اللهَ ما اسْتَطَعْتُمْ واسْمَعُوا وأَطِيعُوا ﴾ الى غير ذلك من الآيات الكريمة الناصَّة على النهى عن الاستبداد والتفرق ، وعدم الانقياد والطاعة ، مما كان عليه أهل الجاهلية

مخالفة ولىّ الامر

(الثالثة) : ان مخالفة ولى الامر وعدم الانقياد له عندهم فضيلة ، وبعضهم يجعله دينًا . فخالفهم النبى ﷺ فى ذلك وأمرهم بالصبر على

جور الولاة ، والسمع والطاعة والنصيحة لهم ، وغلّظ فى ذلك وأبدى وأعاد . وهذه الثلاث هى التى ورد فيها ما فى الصحيح عنه ﷺ « يرضى لكم ثلاثاً : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ، وأن تُناصحوا من ولاّه الله أمركم » . وروى البخارى عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال « من كره من أميره شيئاً فليصبر ، فانه من خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية » . وروى أيضاً عن جُنادة بن أبى أمية قال : دخلنا على عُبادة بن الصامت وهو مريض ، فقلنا : أصلحك الله ، حدّثْ بحديث ينفعك الله به سمعته من النبى ﷺ . قال : دعانا النبى ﷺ فبايعنا ، فكان فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة فى مَنْشَطنا ومَكْرَهنا وعُسرنا ويسرنا وأَثَرةٍ علينا وأن لا ننازع الأمر أهله ، إلا ان يكون كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهانٌ . والأحاديث الصحيحة فى هذا الباب كثيرة ، ولم يقع خلل فى دين الناس أو دنياهم إلا من الإخلال بهذه الوصية

التقليد

(الرابعة) : أن دينهم مبنى على أصول أعظمها التقليد ، فهو القاعدة الكبرى لجميع الكفار من الأولين والآخرين ، كما قال تعالى فى الزخرف (٢٣-٢٤) : ﴿ وكَذٰلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فى قَرْيَةٍ

مِنْ نَذِيرٍ إلاَّ قال مُتْرَفُوها إنّا وَجَدْنا آباءنا على أُمَّةٍ وإنّا علىٰ آثارِهِمْ مُقْتَدُون . قالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأهْدَى مِمّا وَجَدْتُم عَلَيهِ آباءكم ، قالوا إنّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُون ﴾ فأمرهم الله تعالى بقوله فى سورة الاعراف (٣) : ﴿ اتَّبِعُوا ما أُنزِلَ إليكُمْ مِنْ ربِّكُمْ ولا تَتَّبِعوا مِنْ دُونه أَوْلِياء ، قَلِيلاً مّا تَذَكَّرُونَ ﴾ وقال تعالى (البقرة ١٧٠) : ﴿ وإذا قِيلَ لهمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللهُ قالوا بلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنا عليهِ آباءَنا ، أَوَ لوْ كانَ آباؤُهمْ لا يَعْقِلونَ شَيئاً ولا يَهْتَدُون ﴾ الى غير ذلك مما يدل على أن أهل الجاهلية كانوا فى ربقة التقليد ، لا يحكّمون لهم رأياً ولا يشغلون فكراً ، فلذلك تاهوا فى أودية الجهالة . وهكذا كل من سلك مسلكهم فى أى عصر كان

الاقتداء بالعالم الفاسق ، أو العابد الجاهل

(الخامسة) : الاقتداء بفسقة أهل العلم وجهالهم وعبّادهم ، فحذَّرهم الله تعالى من ذلك بقوله (التوبة ٣٤) : ﴿ يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إنَّ كَثِيراً من الأَحْبارِ والرُّهْبانِ لَيأْكُلونَ أَمْوالَ النّاسِ بالباطلِ ويُصُدُّونَ عنْ سبيلِ الله ﴾ وقال تعالى (المائدة ٧٧) : ﴿ قُلْ يا أَهْلَ الكتابِ لا تَغْلُوا فى دِينِكُمْ غَيْرَ الحقِّ ولا تَتَّبِعُوا أَهْواءَ قَوْمٍ قدْ

ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وأضَلُّوا كَثِيراً وضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ ﴾ الى آيات أخر تنادى ببطلان الاقتداء بالفساق وأهل الضلالة والغىّ ، وذلك من سنن أهل الجاهلية وطرائقهم المعوجة

الاحتجاج بما كان عليه الآباء بلا دليل

(السادسة) : الاحتجاج بما كان عليه أهل القرون السالفة من غير تحكيم العقل والأخذ بالدليل الصحيح . وقد أبطل الله تعالى ذلك بقوله فى طه (٤٩ ـ ٥٤) : ﴿ قالَ فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسىٰ ، قال رَبُّنا الذى أعْطىٰ كلَّ شىءٍ خَلْقَهُ ثمَّ هَدَى . قالَ فما بالُ القُرونِ الأُولىٰ ، قال عِلْمُها عِنْدَ رَبِّى فى كِتابٍ ، لا يَضِلُّ رَبِّى ولا يَنْسَى . الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأرْضَ مَهْداً وَسَلكَ لَكُمْ فيها سُبُلا وأنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فأخْرَجْنا بِهِ أزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى . كُلُوا وارْعَوْا أنْعامَكُم ﴾ الخ . وقال تعالى فى القَصص (٣٦ ـ ٣٧) : ﴿ فَلَمّا جاءَهُمْ موسىٰ بآياتِنا بَيِّناتٍ قالوا ما هٰذا إلا سِحْرٌ مُفْتَرَى وما سَمِعْنا بِهٰذا فى آبائِنا الأوَّلِين . وقال مُوسىٰ رَبِّى أعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ ومَنْ تَكُونُ له عاقِبَةُ الدارِ إنَّهُ لا يُفْلِحُ الظالِمُون ﴾ وقال عز ذكره فى سورة المؤمنين (٢٣ ـ ٢٥) : ﴿ ولَقَدْ أرْسَلْنا نُوحاً إلى قَوْمِهِ فقال يا قومِ اعْبُدوا

اللهَ ما لَكُمْ مِنَ إلَهٍ غيرُه ، أفلا تتقُون . فقال المَلَأُ الَّذينَ كَفرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما هٰذا إلاّ بَشَرٌ مِثلُكُمْ يُرِيدُ أنْ يَتفضَّلَ عَليكُمْ ولو شاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكةً ما سَمِعْنا بِهٰذا فى آبائِنا الْأَوَّلِين . إنْ هوَ إلاّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِين ﴾ وقال تعالى فى ص (٦-٧) ﴿ وانْطَلَقَ المَلَأُ منهمْ أنِ امْشُوا واصْبِرُوا على آلِهَتِكُمْ ، إنَّ هٰذا لَشىءٌ يُراد . ما سَمِعْنا بِهٰذا فى المِلَّةِ الآخِرَةِ إنْ هٰذا إلاّ اخْتِلاق ﴾ . فجعلوا مدار احتجاجهم على عدم قبول ما جاءت به الرسل أنه لم يكن عليه أسلافهم ولا عرفوه منهم . فانظر الى سوء مداركهم وجمود قرائحهم ، ولو كانت لهم أعين يبصرون بها أو آذان يسمعون بها لعرفوا الحق بدليله ، وانقادوا لليقين من غير تعليله . وهكذا أخلافهم وورّاثهم قد تشابهت قلوبهم

الاحتجاج على الحقّ بقلّة أهله

(السابعة) : الاعتماد على الكثرة و الاحتجاج بالسواد الاعظم ، والاحتجاج على بطلان الشىء بقلة أهله . فأنزل الله تعالى ضد ذلك وما يبطله فقال فى الأنعام (١١٦ - ١١٧) : ﴿ وإنْ تُطِعْ أكثَرَ مَنْ فى الأرضِ يُضِلُّوكَ عن سَبيلِ اللهِ ، إنْ يَتَّبِعونَ إلاّ الظنَّ وإنْ همْ

إلاّ يَخرُصون . إنَّ ربّكَ هو أعلَمُ مَنْ يَضِلُّ عن سَبيلِهِ ، وهُوَ أعلَمُ بالمُهتَدِين ﴾ . فالكثرة على خلاف الحق لا تستوجب العدول عن اتباعه لمن كان له بصيرة وقلب ، فالحقُّ أحقُّ بالاتباع وان قل أنصاره ، كما قال تعالى (ص ٢٤) : ﴿ قالَ لقدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إلى نِعاجِهِ وإنَّ كَثِيراً مِنَ الخُلَطاءِ لَيَبْغِي بعضُهم عَلى بعضٍ إلاّ الَّذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحاتِ وقَليلٌ مّا هُمْ ﴾ . فأخبر الله عن أهل الحق أنهم قليلون ، غير أن القلة لا تضرهم

تُعيّرنا أنّا قليلٌ عَديدُنا فقلتُ لها إنَّ الكرامَ قليلُ [1]

فالمقصود أن من له بصيرة ينظر الى الدليل ، ويأخذ ما يستنتجه البرهان ، وإن قلَّ العارفون به المنقادون له . ومن أخذ ماعليه الأكثر وما ألِفَته العامة ، من غير نظر لدليل ، فهو مخطىء ، سالك سبيل الجاهلية ، مقدوح عند أهل البصائر

الاستدلالُ على بطلان الشيء بكونه غريباً

(الثامنة) : الاستدلال على بطلان الشيء بكونه غريباً ، فردَّ الله تعالى ذلك بقوله فى هود (١١٦) : ﴿ فلولا كانَ مِنَ القُرونِ مِنْ

---

(١) للسموأل

قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الفَسادِ فى الأرضِ إلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنا مِنهُمْ ، واتَّبَعَ الذينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فيهِ وكانوا مُجْرِمين ﴾ ومعنى الآية ﴿ فلولا كان ﴾ تحضيض فيه معنى التفجّع ، أى فهلا كان ﴿ من القرون ﴾ أى الأقوام المقتربة فى زمان واحد ﴿ من قبلكم أولو بقية ﴾ أى ذوو خصلة باقية من الرأى والعقل أو ذوو فضل ، على أن يكون البقية اسما للفضل والهاء[1] للنقل ، ومن هنا يقال فلان من بقية القوم أى من خيارهم ، ومنه قولهم فى الزوايا خبايا وفى الرجال بقايا ، ﴿ ينهون عن الفساد فى الأرض ﴾ الواقع فيما بينهم حسبما ذكر فى قصصهم ، وفسر الفساد بالكفر وما اقترن به من المعاصى ، ﴿ إلا قليلا ممن انجينا منهم ﴾ استثناء منقطع أى ولكن قليلا منهم أنجينا لكونهم كانوا ينهون

انخداعُ أهل القوّة والحيلة بقوّتهم وحيلتهم

(التاسعة) : الاستدلال على المطلوب والاحتجاج بقوم أعطوا من القوة فى الفهم والادراك وفى القدرة والملك ظناً أن ذلك يمنعهم من الضلال ، فرد الله تعالى ذلك عليهم بقوله سبحانه فى الاحقاف (٢٤ - ٢٦) : ﴿ فلمّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالوا هٰذا عارِضٌ

(٢) أى هاء التأنيث فى « بقية »

مُمْطِرُنا ، بلْ هوَ ما اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ، رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيم . تُدَمِّرُ كلَّ شيءٍ بِأمْرِ رَبِّها فأصْبَحُوا لا يُرَى إلاّ مَساكِنُهمْ ، كَذَلكَ نَجْزِي القومَ المُجْرِمِين . ولقد مَكَّنَّاهمْ فيما إنْ مَكَّنَّاكُمْ فيهِ وجَعَلْنا لهمْ سَمْعاً وأبْصاراً وأفْئِدةً فما أغنَى عنهمْ سَمْعُهُمْ ولا أبْصارُهمْ ولا أفْئِدَتُهمْ مِنْ شيءٍ إذْ كانوا يَجْحَدُونَ بآياتِ اللهِ وحاقَ بهِـــمْ ما كانوا به يَسْتَهْزِئُون ﴾ . ومعنى الآية ﴿ ولقد مكناهم ﴾ أى قوّينا عاداً وأقدرناهم و « ما » فى قوله تعالى فيما إن مكناكم فيه موصولة أو موصوفة و « إنْ » نافية أى فى الذى أو فى شىء ما مكناكم فيه من السعة والبسطة وطول الاعمار وسائر مبادئ التصرفات ، كما فى قوله تعالى (الانعام ٦) : ﴿ ألم يَرَوْا كم أهلكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ من قَرْنٍ مَكَّنَّاهمْ فى الأرض ما لم نُمَكِّنْ لكم ﴾ ولم يكن النفى بلفظ « ما » كراهة لتكرير اللفظ وان اختلف المعنى ﴿ وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة ﴾ ليستعملوها فيما خلقت له ويعرفوا لكل منها ما نيطت به معرفته من فنون النعم ، ويستدلوا بها على شئون منعمها عز وجل ويداوموا على شكره جل ثناؤه ﴿ فما أغنَى عنهم سمعهم ﴾ حيث لم يستعملوه فى استماع الوحى ومواعظ الرسل ﴿ ولا أبصارهم ﴾ حيث لم يجتلوا بها الآيات التكوينية المرسومة فى صحائف العالم ﴿ ولا أفئدتهم ﴾ حيث لم يستعملوها فى معرفة الله تعالى

﴿ من شيء ﴾ أى شيئاً من الأشياء ، و«من» مزيدة للتوكيد . وقوله ﴿ إذ كانوا يجحدون بآيات الله ﴾ تعليل للنفى ﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ من العذاب الذى كانوا يستعجلونه بطريق الاستهزاء ويقولون ﴿ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ . فهذه الآية تبطل الاحتجاج بقوم أعطوا ما أعطوا من القوة فى الفهم والادراك وفى القدرة والملك ظناً أن ذلك يمنعهم من الضلال . ألا ترى أن قوم عاد كما أخبر عنهم التنزيل كانوا من القوة والبسطة فى الأموال والأبدان والإدراك وسعة الاذهان وغير ذلك مما لم يكن مثله للعرب الذين أدركوا الاسلام ، ومع ذلك ضلوا عن سواء السبيل وكذبوا الرسل بالاباطيل ، فالتوفيق للايمان بالله ورسله والإذعان للحق وسلوك سبله إنما هو فضل من الله تعالى ، لا لكثرة مال ولا لحسن حال . ومن يردّ الحق ويستدل بكون من هو أحسن حالا منه لم يقبله ولم يحكم عقله ويتبع مايوصله اليه الدليل فقد سلك سبيل الجاهلية ، وحاد عن المحجة المرضية . ومثل هذه الآية قوله تعالى (البقرة ٨٩) : ﴿ وكانوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ على الَّذِينَ كَفَرُوا فلمّا جاءَهُمْ ما عَرَفوا كَفَرُوا به ، فَلَعْنَةُ اللهِ على الكافِرين ﴾ . كان اليهود يعلمون من كتبهم رسالة محمد ﷺ وأن الله سيرسل نبياً كريماً من العرب ، وكانوا قبل بعثته يستفتحون على

المشركين ببعثته ويقولون : يا ربنا ، أرسل النبيّ الموعود إرساله حتى ننتصر على الاعداء . فلما جاءهم ما عرفوا وهو محمد ﷺ كفروا به ، حسداً منهم أن تكون النبوّة فى العرب ، وهم بزعمهم أحسن أثاثاً ورِئياً . ولم يعلموا أن النبوة والإيمان بها فضل من الله يؤتيه من يشاء. ومثلها أيضا قوله تعالى (البقرة ١٤٦ ـ ١٤٧) : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ الضمير فى قوله «يعرفونه» عائد على العلم فى قوله (١٤٥) : ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فكتمانهم الحق وعدم جريهم على مقتضى علمهم لما فيهم من الجاهلية والاعتقاد أن فضل الله مقصور عليهم لا يتعدّاهم الى غيرهم . وآية الانعام (١٩ـ٢٠) موافقة لهذه الآية لفظاً ومعنى ، وهى قوله تعالى ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ، أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ، قُلْ لَا أَشْهَدُ ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

انخداع أهل الثروة بثروتهم

(العاشرة) : الاستدلال بعطاء الدنيا على محبة الله تعالى ، قال سبحانه (سبأ ٣٤ ـ ٣٩) : ﴿ وما أَرْسَلْنا فى قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إلاّ قال مُتْرَفُوها إنّا بما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُون . وقالوا نحنُ أكثرُ أموالاً وأولاداً وما نحنُ بمُعَذَّبين . قلْ إنَّ ربى يَبسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاء ويَقْدِرُ ولٰكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون . وما أَمْوالُكُمْ ولا أَوْلادُكُمْ بالَّتى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنا زُلْفىٰ إلاّ مَنْ آمنَ وعَمِلَ صالحاً فأُولٰئِكَ لهمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بما عَمِلوا وهم فى الغُرُفاتِ آمِنون . والَّذِينَ يَسْعَوْنَ فى آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولٰئِكَ فى العَذابِ مُحْضَرُون . قُلْ إنَّ رَبِّى يَبسُطُ الرزقَ لِمَنْ يَشاءُ مِن عِبادِهِ ويَقْدِرُ له ، وما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شىءٍ فهُوَ يُخْلِفُهُ وهُوَ خَيرُ الرازِقِين ﴾ وقال فى سورة القصص (٤٦ ـ ٥٠) : ﴿ وما كنتَ بجانبِ الطُّورِ إذ نادَينا ولٰكنّ رَحمةً مِن ربِّكَ لِتُنْذِرَ قوماً ما أتاهمْ مِن نَذيرٍ مِن قَبلِكَ لعلَّهمْ يَتَذَكَّرون . ولولا أنْ تُصِيبَهمْ مُصِيبَةٌ بما قَدَّمَتْ أيدِيهمْ فيقُولوا ربَّنا لولا أرْسَلْتَ إلينا رَسُولاً فنتَّبِعَ آياتِكَ ونكونَ مِنَ المؤمنين . فلما جاءهُمُ الحقُّ من عندِنا قالوا لولا أُوتِىَ مِثْلَ ما أُوتِىَ موسىٰ ، أوَلم يَكفُرُوا بما أُوتِىَ موسىٰ

مِن قبلُ ، قالوا سِحْرانِ تَظاهَرا وقالوا إنّا بكلٍّ كافِرون . قلْ فأتوا بِكتابٍ مِن عندِ اللهِ هُوَ أهدَى مِنهُما أتبِعْهُ إنْ كنتمْ صادِقين . فانْ لم يَسْتَجِيبوا لكَ فاعلمْ أنَّما يَتبِعون أهْواءَهمْ ، ومَنْ أضَلُّ ممَّنْ اتَّبعَ هَواهُ بغيرِ هُدًى منَ اللهِ ، إنَّ اللهَ لايَهْدِى القومَ الظالِمين ﴾ . وفى آيات أخرى فى سورة القصص (٧٦ ـ ٧٨) يقول الله سبحانه ﴿ إنَّ قارُونَ كان مِنْ قومِ مُوسىٰ فبَغيٰ عليهمْ وآتيناهُ مِنَ الكُنوزِ ما إنَّ مَفاتِحَهُ لتَنوءُ بالعُصْبةِ أولى القوَّةِ إذْ قال له قومُه لا تَفرَحْ إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الفَرِحين . وابْتَغِ فيما آتاكَ اللهُ الدارَ الآخِرَة ولا تَنْسَ نَصيبَكَ منَ الدّنيا وأحسنْ كما أحسنَ اللهُ اليكَ ولا تبغِ الفسادَ فى الارضِ إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المفسدين . قال إنَّما أُوتِيتُه على علمٍ عِندِى ، أوَ لم يَعْلمْ أنَّ اللهَ قد أهلكَ مِنْ قبلِهِ مِنَ القُرونِ مَنْ هُوَ أشدُّ منه قوَّةً وأكثرُ جمعا ، ولا يُسْألُ عن ذُنوبِهِمُ المجرِمُون ﴾ الى آخر الآية فقد كفانا الله تعالى إبطال هذه الخصلة الجاهلية بقوله فى الآية الأولى (سبأ ٣٦) : ﴿ قل إنَّ ربى يبسُط الرزقَ لمن يشاء ﴾ وفى الآية الاخرى (القصص ٧٨) بقوله ﴿ أو لم يعلمْ أنَّ اللهَ ﴾ الخ ، فعلمنا من ذلك أن محبة الله ورضاء الله إنما يكون بطاعته والانقياد لرسله والاذعان للحق باتباع البرهان . وأما كثرة المال وسعة الرزق وعيش الرخاء فلا دليل

فيه على نجاة المنعم عليه بمثل ذلك، ولو كانت الدنيا وما فيها تعادل عند الله جناح بعوضة ما سقى من عصاه شربة ماء، قال سبحانه (الزخرف ٣٣) : ﴿ ولولا أنْ يكونَ الناسُ أمةً واحدةً لجعلنا لمن يَكفُرُ بالرحمٰنِ لِبُيوتِهِمْ سُقُفاً من فِضَّةٍ ومَعارِجَ عليها يَظْهَرُون ﴾ وعلى ذلك قول القائل[١] :

كم عالِمٍ عالِمٍ أعيتْ مذاهبُه   وجاهلٍ جاهلٍ تلقاه مَرْزوقا[٢]

ومما ينسب لبعض الأكابر :

رضينا قسمةَ الجبّارِ فينا   لنا عِلمٌ وللاعداء مالُ
فان المالَ يفنىٰ عن قريبٍ   وان العلمَ باقٍ لا يزال

والشواهد كثيرة . والمقصود أن ما كان عليه أهل الجاهلية من كون زخارف الدنيا من الأدلة على قرب من حازها من الله وقبوله عنده قول بعيد عن الحقّ ، ومذهب باطل لا ينبغي لمن له بصيرة أن يعوّل عليه

الاستخفافُ بالحقّ لضعف أهله

(الحادية عشرة) : الاستدلال على بطلان الشيء بأخذ الضعفاء

---

(١) هو أبو الحسين أحمد بن يحيي المشهور بابن الراوندى الملحد

(٢) وبعده : هذا الذى ترك الاوهام حائرة   وصير العالم النحرير زنديقا

به وضعف فهم من أخذ به على ما يدل عليه قول قوم نوح له كما حكاه عنهم الكتاب الكريم ، قال تعالى فى سورة الشعراء (١٠٥-١١٥) ﴿ كَذَّبَتْ قومُ نوحٍ المرسَلين . إذ قال لهم أخوهم نوحٌ ألاَ تَتَّقون . إنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أمِين . فاتقُوا اللهَ وأطِيعُون . وما أسْأَلُكُمْ عليه مِنْ أجْرٍ إنْ أجْرِىَ إلاّ علىٰ رَبِّ العالَمين . فاتَّقوا اللهَ وأطِيعُون . قالوا أنُؤْمِنُ لكَ واتَّبَعَكَ الأرْذَلون . قال وما عِلْمى بما كانوا يَعْمَلون . إنْ حِسابُهُمْ إلاّ علىٰ ربِّى لو تَشْعُرون . وما أنا بِطارِدِ المُؤْمِنين . إنْ أنا إلاّ نَذِيرٌ مُبِين ﴾ فانظر الى قوم نوح كيف استنكفوا من اتباع نبيهم لسبب اتباع الضعفاء له ، وذلك لكون مطمح أنظارهم الدنيا ، وإلاّ لو كانت الآخرة همهم لاتبعوا الحقّ أينما وجدوه ، ولكن لجاهليتهم أعرضوا عن الحق لاتباع شهواتهم . وانظر الى هِرَقْلَ لما كان من العقل والبصيرة على جانب عظيم اعتقد اتباع الضعفاء دليلا على الحق ، فقال فى جملة ما سأل أبا سفيان عن رسول الله ﷺ : وسألتُكَ أشرافُ الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرتَ أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل . ومثل ذلك قوله تعالى فى سورة هود (٢٥-٢٧) : ﴿ ولَقَدْ أَرسلْنا نوحاً إلىٰ قومِه إنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِين . ألاّ تَعْبُدُوا إلا اللهَ ، إنِّى أخافُ عليكم عَذابَ يومٍ ألِيم . فقال الملأُ الَّذِينَ

كَفَرُوا مِنْ قومِه ما نراكَ إلاّ بَشَراً مِثلَنا وما نراكَ اتَّبَعَكَ إلاّ الَّذينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ وما نَرَى لَكم عَلَينا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبين ﴾ الآيات

وَصْمُ انصارِ الحقّ بما ليس فيهم

(الثانية عشرة) : من خصال الجاهلية رمى من اتبع الحق بعدم الاخلاص وطلب الدنيا . فرد الله عليهم بقول نبيهم الذى حكاه الله عن نوح فى الآية الاولى المذكورة فى المسألة الحادية عشرة بقوله (الشعراء ١١١-١١٣) ﴿ قالوا أنُؤمِنُ لكَ واتَّبعَكَ الأرْذَلون . قال وما عِلْمى بما كانوا يَعْمَلون . إنْ حِسابُهُمْ إلاّ علىٰ رَبِّى لو تَشْعُرون ﴾ ومقصودهم أن أتباعك فقراء آمنوا بك لينالوا مقصدهم من العيش ، لا أن إيمانهم كان لدليل يقتضى صحة ما جئتَ به ، فلهذا ردَّ عليهم بما رد

التكبُّرُ عن نصرةِ الحقّ لان أنصارَه ضُعفاء

(الثالثة عشرة) : من خصال الجاهلية الإعراض عن الدخول فى الحقّ الذى دخل فيه الضعفاء تكبراً وأنفة ، فردَّ الله تعالى عليهم ذلك بقوله فى سورة الانعام (٥٢ - ٥٣) : ﴿ ولا تَطْرُدِ الَّذينَ يَدْعُونَ

ربَّهم بالغَداةِ والعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ما عليكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شيء وما مِنْ حِسابِكَ عليهمْ مِنْ شيء فَتَطْرُدَهمْ فتكونَ من الظّالمين . وكذٰلكَ فَتَنَّا بعضَهمْ بِبَعْضٍ لِيَقولوا أَهٰؤُلاء مَنَّ اللهُ عَلَيهمْ مِنْ بَيْنِنا ، أَليسَ اللهُ بأَعْلَمَ بالشّاكِرِين ﴾ . ومثل ذلك قوله تعالى ﴿ عَبَسَ وتَوَلَّى أنْ جاءَهُ الأَعْمىٰ ﴾ وغير ذلك . وحاصل الردّ أن من آمن من هؤلاء الضعفاء إنما كان إيمانه عن برهان ، لا كما زعم خصومهم ، ولست أنت بمسئول عنهم ولا هم بمسئولين عن حسابك ، فطردُهم عن باب الإيمان من الظلم بمكان

استدلالهُم على بُطلانِ الشيء بكونهم أولىٰ به لو كان حقًّا

(الرابعة عشرة) : الاستدلال على بطلان الشيء بكونهم أولىٰ به لو كان حقاً . قال تعالى فى سورة الاحقاف (١١) : ﴿ وقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لو كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إليهِ ، وإذْ لَمْ يَهْتَدُوا بهِ فَسَيَقُولونَ هٰذا إفْكٌ قَدِيم ﴾ بعد قوله (١٠) : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إنْ كانَ مِنْ عندِ اللهِ وكَفَرْتُمْ بهِ وشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَني إسرائيلَ علىٰ مِثْلِهِ فآمَنَ واسْتَكْبَرْتُمْ إنَّ اللهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الظّالِمين ﴾

جهلُهم بالجامِع والفارِق

(الخامسة عشرة) : الاستدلال بالقياس الفاسد وإنكار القياس الصحيح وجهلهم بالجامع والفارق . قال تعالى فى سورة المؤمنين (٢٤-٢٥) : ﴿ فقالَ المَلأُ الذينَ كفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما هٰذا إلاّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أنْ يَتَفَضَّلَ عليكُمْ ولو شاءَ اللهُ لأنْزَلَ مَلائِكَةً ما سَمِعْنا بِهٰذا فى آبائِنا الأوَّلِين . إنْ هُوَ إلاّ رَجُلٌ به جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حتَّى حِين ﴾ وقبل الآية (٢٣) : ﴿ ولقَدْ أرْسَلْنا نُوحاً إلى قَومِه ﴾ شروع فى بيان إهمال الناس وتركهم النظر والاعتبار فيما عدَّد سبحانه وتعالى من النعم قبل هذه الآية وتخويفهم من زوالها ، وفى ذلك تخويف لقريش ، وتقديم قصة نوح عليه السلام على سائر القصص مما لا يخفى وجهه . فقال متعطفاً عليهم ومستميلا لهم الى الحق ﴿ يا قومِ اعبُدوا الله ﴾ أى اعبدوه وحده ﴿ ما لكم من إله غيره ﴾ استئناف مسوق لتعليل العبادة المأمور بها ﴿ أفلا تتقون ﴾ الهمزة لانكار الواقع واستقباحه ، والفاء للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام ، أى أتعرفون ذلك ، أى مضمون قوله تعالى ﴿ ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ عذابه تعالى الذى يستوجبه ما أنتم عليه من ترك عبادته سبحانه وحده وإشراككم به عز وجل فى العبادة ما لا يستحق الوجود — لولا إيجاد

الله إياه ـ فضلا عن استحقاق العبادة ، فالمنكر عدم الاتقاء مع تحقق ما يوجبه ﴿ فقال الملأ ﴾ أى الاشراف ﴿ الذين كفروا من قومه ﴾ وصف الملأ بالكفر مع إشراك الكل فيه للإيذان بكمال عراقتهم وشدة شكيمتهم فيه ، وليس المراد من ذلك إلا ذمهم دون التميز عن أشراف آخرين آمنوا به عليه السلام أو لم يؤمن به أحد من أشرافهم كما ينفصح عنه قوله ﴿ ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ﴾ وهذا القول صدر منهم لعوامهم ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم ﴾ أى فى الجنس والوصف من غير فرق بينكم وبينه ، وصفوه عليه السلام بذلك مبالغة فى وضع رتبته العالية وحطها عن منصب النبوة ، وصفوه بقوله سبحانه وتعالى ﴿ يريد أن يتفضل عليكم ﴾ إغضاباً للمخاطبين عليه عليه السلام وإغراء لهم على معاداته . و « التفضل » طلب الفضل وهو كناية عن السيادة كأنه قيل : يريد أن يسودكم ويتقدمكم بادعاء الرسالة مع كونه مثلكم . ﴿ ولو شاء الله لأنزل ملائكة ﴾ بيان لعدم رسالة البشر على الاطلاق على زعمهم الفاسد بعد تحقيق بشريته عليه السلام ، أى ولو شاء الله تعالى إرسال الرسول لأرسل رسلا من الملائكة ، وإنما قيل « لأنزل » لان إرسال الملائكة لا يكون إلا بطريق الإنزال ﴿ ما سمعنا بهذا فى آبائنا الاولين ﴾ هذا إشارة الى الكلام المتضمن الأمر بعبادة الله عز وجل خاصة ، والكلام على تقدير مضاف أى ما سمعنا بمثل هذا

الـكلام فى آبائنا الماضين قبل بعثته عليه السلام . وقدّر المضاف لان عدم السماع لـكلام نوح المذكور لا يصلح للرد ، فان السماع لمثله كاف فى القبول . ﴿ إنْ هو إلا رجل به جِنَّة ﴾ أى ما هو إلا رجـل به جنون أو جن يخبلونه ، ولذلك يقول ما يقول ﴿فتربَّصوا به حتى حين﴾ فاحتملوه واصبروا عليه وانتظروا لعله يفيق مما هو فيه ، محمول على مرامى أحوالهم فى المـكابرة والعناد ، وإضرابهم عما وصفوه عليه السلام به من البشرية وإرادة التفضّل الى وصفه بما ترى ، وهم يعرفون أنه عليه السلام أرجح الناس عقـلا وأرزنهم قولا ، وهو محمول على تناقض مقالاتهم الفاسدة ، قاتلهم الله تعالى أنى يؤفـكون . والقياس الفاسد والصحيح والجامع والفارق مفصل فى كتب الاصول[1] ، فبين الرسل عليهم السلام وسائر الناس مشابهة من جهة البشرية ولوازمها الضرورية ، فيصح حينئذ قياس الرسل على غيرهم فيها ، وعليه قوله تعالى (الـكهف ١١٠ ، فصلت ٦) : ﴿ قُلْ إنَّما أنا بَشَرٌ مِثْلُـكم ﴾ . وبين الرسل والانبياء عليهم السلام وغيرهم من البشر فروق كثيرة ، منها أن الله تعالى اصطفاهم على الناس برسالته وبكلامه ووحيه وخصهم بذلك ،

---

(١) وأجود ما كتب فى الاستدلال بالقياس ، وتمييز صحيحه من سقيمه ، كتاب (القياس فى الشرع الاسلامى) لشيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيم وقد طبعته المطبعة السلفية مرتين

فلا يقاس أحد من الناس بهم حينئذ من هذه الجهة ، كما لا يصح قياس غيرهم بهم فى سائر خصائصهم التى فصلت فى غير هذا الموضع . فالجاهلية لم يميزوا بين القياس الصحيح والفاسد ، ولا عرفوا الجامع ولا الفارق كما سمعت من قياسهم الرسل على غيرهم ، وهكذا أتباعهم اليوم ومن هو على شاكلتهم

الغلوّ فى الصالحين

(السادسة عشرة) : الغلوّ فى الصالحين من العلماء والأولياء ، كقوله تعالى فى سورة التوبة (٣٠ - ٣١) : ﴿ وقالَتِ اليهودُ عُزيرٌ ابنُ اللهِ وقالتِ النَّصارىٰ المَسيحُ ابنُ الله ، ذٰلكَ قولهُمْ بأفواهِهِم يُضاهِئونَ قولَ الَّذينَ كفَروا من قبلُ ، قاتَلَهُمُ اللهُ أنَّى يُؤفَكُون . اتَّخَذُوا أحْبارَهُمْ ورُهْبانَهُمْ أرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ والمَسيحَ ابنَ مَرْيَمَ وما أُمِرُوا إلاّ لِيَعْبُدوا إلٰهاً واحِداً لا إلٰهَ إلاّ هُوَ سُبْحانَهُ عَمّا يُشْرِكون . يُرِيدُونَ أنْ يُطْفِئوا نُورَ اللهِ بأفْواهِهِمْ ويَأْبىٰ اللهُ إلاّ أنْ يُتِمَّ نُورَهُ ولو كَرِهَ الكافِرُون ﴾ فاتخاذ أحبار الناس أرباباً يحلون ويحرّمون ويتصرّفون فى الكون وينادون فى دفع ضر أو جلب نفع من جاهلية الكتابيين ، ثم سرى الى غيرهم من جاهلية العرب ، ولهم اليومَ بقايا فى مَشارق الارض ومَغاربها تصديقاً لقول النبى ﷺ « لتتبِعُنَّ سَنَنَ

من كان قبلكم » الحديث . حتى نرى غالب الناس اليوم معرضين عن الله وعن دينه الذى ارتضاه ، متوغلين فى البدع ، تائهين فى أودية الضلال ، معادين للكتاب والسنة ومن قام بهما ، فأصبح الدينُ منهم فى أنين ، والاسلام فى بلاء مبين . وحسبنا الله ونعم الوكيل

الاعتذارُ بعدم الفهم

(السابعة عشرة) : اعتذارهم عن اتّباع الوحى بعدم الفهم ، قال تعالى فى سورة البقرة (٨٧ ـ ٨٨) : ﴿ ولَقَدْ آتَينا مُوسىٰ الكِتابَ وقَفَّيْنا مِنْ بَعدِه بالرُّسُل وآتَينا عِيسى ابنَ مَرْيَمَ **البَيِّنات** وأَيَّدْناهُ بِرُوح القُدُسِ ، أفَكُلَّما جاءَكُمْ رَسُولٌ بما لا تَهْوَى أنفسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ ففَرِيقاً كَذَّبتُمْ وفَرِيقاً تَقْتُلون . وقالوا قُلوبُنا غُلْفٌ ، بلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكفرِهِمْ فَقَلِيلاً مّا يُؤْمِنون ﴾ وفى سورة النساء (١٥٥) ﴿ فبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ وكُفْرِهِمْ بِآياتِ اللهِ وقَتْلِهِمُ الأنْبياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وقَوْلِهِمْ قُلوبُنا غُلْفٌ ، بلْ طَبَعَ اللهُ عليها بِكُفْرِهِمْ فلا يُؤْمِنون إلاّ قَلِيلا ﴾ . الغُلْف : جمع أغْلَف كأحمر وحُمر ؛ وهو الذى لا يفقه . وأصله ذو القلفة الذى لم يختن ، أو جمع غلاف ، ويجمع على غُلُف بضمتين أيضا ، وأرادوا على الأول : قلوبنا مغشّاة بأغشية خلقية مانعة

عن نفوذ ما جئتَ به فيها . وهذا كقولهم (فصلت ٥) : ﴿ قلوبُنا فى أكِنَّةٍ مِمّا تَدْعُونا إليه ﴾ . قصدوا به إقناط النبى ﷺ عن الإجابة وقطع طمعه عنهم بالكلية . ومنهم من قال : معنى غلف مغشاة بعلوم من التوراة تحفظها أن يصل اليها ما تأتى به ، أو بسلامة من الفطرة كذلك . وعلى الثانى أنها أوعية العلم ، فلو كان ما تقوله حقاً وصدقاً لوعته . قال ابن عباس وقتادة والسدّى : أو مملوءة علما فلا تسع بعدُ شيئا ، فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره . ومنهم من قال : أرادوا أنها أوعية العلم ، فكيف يحل لنا اتباع الامى . ولا يخفى بُعده . وقال تعالى فى سورة هود (٨٩ - ٩١) : ﴿ وياقوم لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقى أنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أصابَ قَوْمَ نُوحٍ أو قومَ هُودٍ أو قومَ صالحٍ وما قومُ لُوطٍ مِنكُمْ بِبَعِيد . واسْتَغْفِروا رَبَّكُمْ ثم تُوبوا إليه ، إنَّ رَبِّى رَحيمٌ وَدود . قالوا يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كثيراً مّما تَقُولُ وإنّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً ولَوْلا رَهْطُكَ لرَجَمْناكَ وما أنتَ علَينا بِعَزِيز ﴾ وهذه الآية بمعنى الآية الاولى . وقد كذّبهم الله تعالى فى دعواهم هذه فى آيات كثيرة ، وذكر أن السبب فى عدم الفهم إنما هو الطبع على القلوب بكفرهم ، لا القصور فى البيان والتفهيم . وما أحسن قول القائل[1] :

---

(١) هو أبو العلاء المعرى

والنجمُ تستصغرُ الابصارُ صورتَهُ
والذنبُ للطَّرْفِ لا للنجم فى الصِّغَرِ

إنكارُهم الحقَّ الذى لا تقول به طائفتُهم

(الثامنة عشرة) : من خصال الجاهلية أنهم لا يقبلون من الحقّ إلا ما تقول به طائفتهم ، قال تعالى (البقرة ٩١) : ﴿ وإذا قِيلَ لهمْ آمِنوا بِما أنْزَلَ اللهُ قالوا نُؤْمِنُ بما أُنْزِلَ علينا ويَكْفُرُونَ بِما وَراءَهُ وهُوَ الحقُّ مُصَدِّقاً لما مَعَهُمْ ، قُلْ فَلِمَ تَقْتُلونَ أنبِياءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنين ﴾ . ومعنى ﴿ نؤمن بما أُنزِلَ علينا ﴾ أى نستمر على الإيمان بالتوراة وما فى حكمها مما أنزل فى تقرير حكمها ، ومرادهم بضمير المتكلم إما أنبياء بنى اسرائيل وهو الظاهر ، وفيه إيماء إلى أن عدم إيمانهم بالقرآن كان بغياً وحسداً على نزوله على من ليس منهم ، وإما أنفسهم . ومعنى الإنزال عليهم تكليفهم بما فى المنزل من الأحكام . وذُمّوا على هذه المقالة لما فيها من التعريض بشأن القرآن ، ودسائس اليهود مشهورة . أو لأنهم تأوّلوا الأمر المطلق العامّ ونزّلوه على خاصّ هو الايمان بما أنزل عليهم ، كما هو دَيْدَنُهم فى تأويل الكتاب بغير المراد منه . ﴿ ويكفرون بما وراءه وهو الحق ﴾ أى هم مقارنون لحقيقته أى عالمون بها ﴿ مصدقاً لما معهم ﴾ لأن كتب الله يصدِّق بعضها بعضاً ،

فالتصديق لازم لا ينتقل ، وقد قررت مضمون الخبر لأنها كالاستدلال عليه ، ولهذا تضمنت رد قولهم ﴿ نؤمن بما أنزل علينا ﴾ حيث أن من لم يصدِّق بما وافق التوراة لم يصدّق بها . ﴿ قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبلُ إن كنتم مؤمنين ﴾ أمرٌ للنبي ﷺ أن يقول ذلك تبكيتاً لهم حيث قتلوا الأنبياء مع ادعاء الايمان بالتوراة وهى لا تسوّغه

التمسُّك بخُرافات السِّحْر

(التاسعة عشرة) : من خصالهم الاعتياض عن كتاب الله تعالى بكتب السحر ، كما قال تعالى فى سورة البقرة (١٠١ ـ ١٠٢) : ﴿ ولَمّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ كِتابَ اللهِ وَراءَ ظُهورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُون . واتبَعوا ما تَتْلو الشَّياطِينُ علىٰ مُلْكِ سُلَيمانَ ، وما كَفَرَ سُلَيمانُ ولٰكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمونَ النّاسَ السِّحْرَ وما أُنْزِلَ على المَلَكَيْنِ ببابِلَ هارُوتَ ومارُوتَ ، وما يُعَلِّمانِ مِنْ أحَدٍ حتّى يَقُولا إنما نحنُ فِتْنَةٌ فلا تَكْفُرْ ، فيَتَعَلَّمونَ مِنهُما ما يُفرِّقونَ بهِ بَينَ المَرْءِ وزَوْجِهِ ، وما هُمْ بِضارِّينَ بهِ مِنْ أحَدٍ إلاّ بإذْنِ اللهِ ، ويَتَعَلَّمونَ ما يَضُرُّهُمْ ولا يَنْفَعُهمْ ، ولقدْ علِموا لمَنِ اشْتَراهُ ما لَهُ فى الآخِرَةِ مِنْ خَلاق ،

وَلَبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ أنفُسَهُمْ لوْ كانوا يَعْلَمون ﴾ والكلام على هذه الآية في التفاسير مشهور . وهذه الخصلة الجاهلية موجودة اليوم فى كثير من الناس ، لا سيما من انتسب الى الصالحين وهم عنهم بمراحل ، فيتعاطى الأعمال السحرية من إمساك الحيَّات وضرب السلاح والدخول فى النيران وغير ذلك مما وردت الشريعة بابطاله ، فأعرضوا ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم واتبعوا ما ألقاه اليهم شياطينهم وادعوا أن ذلك من الكرامات ، مع أن الكرامة لا تصدر عن فاسق ، ومن يتعاطى تلك الاعمال فسقهم ظاهر للعيان ، ولذا اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وفى مثلهم قال تعالى (الكهف ١٠٤) : ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فى الحياةِ الدُّنْيا وهم يَحْسَبُون أنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعا ﴾

التَّناقُضُ فى الانتساب

(العشرون) : تناقضهم فى الانتساب ، فينتسبون الى إبراهيم عليه السلام والى الاسلام ، مع إظهارهم ترك ذلك والانتساب الى غيره

صرفُ النُّصوص عن مَدْلولاتها

(الحادية والعشرون) : تحريف كلام الله من بعد ما عقلوه وهم يعلمون . ولكَمْ فى هذا العصر من هو على شاكلتهم تراه يصرف النصوص ويُأوِّلها الى ما يشتهيه من الأهواء

تحريفُ كتب الدِّين

(الثانية والعشرون) : تحريف العلماء لكتب الدين . قال الله تعالى (البقرة ٧٨ - ٧٩) : ﴿ ومِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمونَ الكِتابَ إلا أمانِيَّ وإنْ هُمْ إلاّ يَظُنُّونَ . فوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبونَ الكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثمَّ يَقُولونَ هٰذا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَروا بِهِ ثمناً قَليلاً ، فَوَيْلٌ لهمْ مِمّا كَتَبَتْ أيْدِيهِمْ ووَيلٌ لهم مما يَكْسِبون ﴾ ومن نظر إلى قضاة هذا الزمان[1] وما تلاعبوا به من الأحكام ، وصرف النصوص الى ما تهواه أنفسهم ، وتبديل الحق وابطاله بما ينالونه من الرشى ، وغير ذلك مما هم عليه اليوم ، تبين له من ذلك بحر لا ساحل له . وهكذا بعض المبتدعة وغلاة القهور ، وقد بيّن حالهم فى غير هذا الموضع

الانصرافُ عن هِداية الدِّين الى ما يُخالفها

(الثالثة والعشرون) : وهى من أعجب المسائل والخصال ، معاداةُ الدين الذى انتسبوا اليه أشدَّ العداوة ، ومُوالاتهم لمذهب الكفار الذين فارقوهم أكمل الموالاة ، كما فعلوا مع النبى ﷺ لما أتاهم بدين موسى واتبعوا كتب السحر وهو من دين آل فرعون ، ومثل هؤلاء فى الأمة

---

(١) المؤلف رحمه الله عاصر الدولة العثمانية ، ويذكر المشاهد فى زمنه

الاسلامية كثير هجروا السنَّة وعادوها ، ونصروا أقوال الفلاسفة وأحكامهم

كفرُهم بما معَ غيرهم من الحقّ

(الرابعة والعشرون) : إنهم لما افترقوا ، وكل طائفة لا تقبل من الحق الا ما قالته طائفتهم ، وكفروا بما مع غيرهم من الحق ، قال تعالى فى سورة البقرة (١١٣) : ﴿ وقالَتِ اليهودُ ليسَتِ النَّصارىٰ علىٰ شَىْء وقالَتِ النَّصارىٰ ليسَتِ اليهودُ على شىء وهمْ يَتْلُونَ الكِتابَ ، كذٰلِكَ قالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ، فاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يومَ القِيامَةِ فِيما كانُوا فيهِ يَخْتَلِفون ﴾ ولا شك أن هذا من خصال الجاهلية وعليه اليومَ كثير من الناس ، لا يعتقد الحق إلا معه ، لا سيما أرباب المذاهب يرى كل أهل مذهب أن الدين معه لا يعدوه الى غيره ، وكل حزب بما لديهم فرحون

وكلٌّ يدَّعى وصلاً لليلىٰ ولبلىٰ لا تقُرُّ لهم بذاكا

والحزم أن ينظر الى الدليل ، فما قام عليه الدليل فهو الحقُّ الحرىُّ أن يتلقى بالقبول ، وما ليس عليه برهان ولا حجة ينبذ وراء الظهور ، وكل أحد يؤخذ من قوله ويردُّ إلا من اصطفاه الله لرسالته

ادّعاء كلّ طائفة حصرَ الحق فيها

(الخامسة والعشرون) : إنهم لما سمعوا قوله ﷺ فى حديث الفرَق « وستفترق أمتى الى ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة » ادَّعى كل فرقة أنها هى الناجية ، كما حكى الله تعالى عن اليهود والنصارى فى قوله تعالى (البقرة ١١٣) : ﴿ وقالَتِ اليهودُ ليسَتِ النَّصارىٰ على شَىْءٍ وقالَتِ النَّصارىٰ ليسَتِ اليهودُ علىٰ شَىْءٍ ﴾ مع أن النبى ﷺ بين فى آخر الحديث المراد من الفرقة الناجية فقال « وهم من كان على مثل ما كنتُ أنا عليه وأصحابى » أو كما قال . وردَّ الله تعالى عليهم بقوله (البقرة ١١١ - ١١٢) : ﴿ وقالُوا لَنْ يَدْخُلَ الجنَّةَ إلاّ مَنْ كان هُوداً أو نَصارىٰ ، تلكَ أمانِيُّهمْ ، قُلْ هاتوا بُرْهانَكُمْ إنْ كنتمْ صادِقين ، بَلىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وهُوَ مُحْسِنٌ فلهُ أجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ ولا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُون ﴾ . والمقصود أنهم ليس لهم برهان على هذه الدعوى ، بل الدليل على خلاف ذلك ، وأبو العباس تقى الدين تكلم على حديث الفِرَق فى كتابه (منهاج السُّنة) بما لا مزيد عليه حيث استدل به الرافضى على حقية مذهبه و بطلان مذهب أهل السُّنة

فراجعه إن أردته[1]

إنكار ما أقرُّوا أنه من دينهم

(السادسة والعشرون) : أنهم أنكروا ما أقروا أنه من دينهم ، كما فعلوا فى حج البيت فتعبدوا بإنكاره والبراءة منه مع ذلك الاقرار كما قال تعالى فى سورة البقرة (١٢٥) : « وإذْ جَعَلْنا البيتَ مَثابَةً للناسِ وأمْناً واتَّخِذُوا من مَقام إبراهيمَ مُصَلًّى » الى أن قال (١٣٠ - ١٣٢) : « ومَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إبراهيمَ إلاّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَه ، ولقدِ اصْطَفَيْناهُ فى الدُّنْيا ، وإنَّهُ فى الآخِرَةِ لَمِنَ الصالحِين . إذْ قالَ لهُ رَبُّه أسْلِمْ قالَ أسْلَمْتُ لِرَبِّ العالَمِين . ووَصَّى بها إبراهيمُ بَنِيهِ ويَعْقُوبُ يا بَنِيَّ إنَّ اللهَ اصْطفى لَكُمُ الدِّينَ فلا تَمُوتُنَّ إلاّ وأنتمْ مُسْلِمُون » .

يقال ان سبب نزول قوله « ومن يرغب » إلخ : ما رُوى أن عبد الله ابن سلاّم دعا ابنى أخيه سلمة ومهاجر الى الاسلام فقال : قد علمتما أن الله تعالى قال فى التوراة : انى باعث من ولد إسماعيل نبياً اسمه أحمد ، فمن آمن به فقد اهتدى ورشد ، ومن لم يؤمن به فهو ملعون . فأسلم سلمة وأبى مهاجر ، فنزلت . انتهى

---

(١) وقد ازدان (منهاج السنة) بالتعليقات النفيسة على مختصره للحافظ الذهبى الذى سماه (المنتقى من منهاج الاعتدال) . نشرته المطبعة السلفية سنة ١٣٧٤

المُجاهَرةُ بكشف العورات

(السابعة والعشرون) : المجاهرة بكشف العورات . قال تعالى فى سورة الاعراف (٢٨-٢٩) : ﴿ وإذا فَعَلوا فاحِشَةً قالوا وَجَدْنا عَلَيها آباءَنا واللهُ أمرَنا بها ، قلْ إنَّ اللهَ لا يأمُرُ بالفَحْشاء ، أتَقُولونَ على اللهِ مالا تَعْلَمون . قلْ أمَرَ ربِّى بالقِسْطِ وأقِيموا وُجُوهَكم عندَ كلِّ مَسْجِدٍ وادْعُوهُ مُخْلِصينَ له الدِّينَ كما بَدَأَكُمْ تَعُودون ﴾ قال بعض المفسرين : الفاحشة هنا الفعلة القبيحة المتناهية فى القبح ، والتاء إما لأنها مجراة على الموصوف المؤنث أى فعلة فاحشة ، وإما للنقل من الوصفية الى الاسمية ، والمراد بها هنا عبادة الأصنام وكشف العورة فى الطواف ونحو ذلك . وعن الفرّاء تخصيصها بكشف العورة . وفى الآية حذفٌ أى : واذا فعلوا فاحشة فنهُوا عنها قالوا : وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ، محتجين بأمرين : بتقليد الآباء ، والافتراء على الله . وكان من سُنَّة الُحْمس أنهم لا يخرجون أيام الموسم الى عرفات ، إنما يقفون بالمُزْدَلِفة . وكانوا لا يَسْلأون ولا يأقِطُون ولا يرتبطون عنزاً ولا بقرة ولا يغزلون صوفاً ولا وَبَراً ولا يدخلون بيتاً من الشعر والمدَر ، وإنما يكتنّون بالقِباب الحمر فى الأشهر الحُرُم ، ثم فرضوا على العرَب قاطبة أن يطرحوا أزْوادَ الحِلّ اذا دخلوا الحرَم ، وأن يتركوا ثياب الحلّ

و يستبدلوها بثياب الحرم ، إما شراء و إما عارية و إما هبة ، فان وجدوا ذلك فيها ، و إلا طافوا بالبيت عرايا . وفرضوا على نساء العرب مثل ذلك . غير أن المرأة كانت تطوف فى درج مفرج القوائم والمآخير . قالت امرأة[1] وهى تطوف بالبيت :

اليومَ يبدو بعضُه أو كلهُ ... وما بدا منه فلا أُحِـلّهُ

أخثم مثل القعب بادٍ ظله ... كأن حُمّى خَيْبرٍ تملّه

وكلفوا العرب أن يفيضوا من مزدلفة ، وقد كانوا يفيضون من عرفة ، الى غير ذلك من الأمور التى ابتدعوها وتشرّعوها مما لم يأذن به الله . ومع ذلك انهم كانوا يدّعون أنهم على شريعة أبيهم إبراهيم عليه السلام ، وما ذلك الا لجاهليتهم

وغالب من ينتمى الى الاسلام اليوم ابتدعوا فى الدين ما لم يأذن به الله : فمنهم من اتخذ ضربَ المعازف وآلات اللهو عبادة يتعبدون بها فى بيوت الله ومساجده ، ومنهم من اتخذ الطواف على القبور و السفر اليها والنذور أخاصَ عبادته وأفضلَ قرباته ، ومنهم من ابتدع الرهبانية و الحيل الشيطانية وزعم أنه سلك سبيل الزهاد وطريق العبّاد ، ومقصده الاعلى نيل شهواته الحيوانية و الفوز بهذه الدنيا الدنية ، الى غير ذلك

---

(١) هى ضباعة بنت عامر بن صعصعة

مما يطول ولا يعلم ماذا يقول

الى ديّان يوم الدين نمضى   وعند الله تجتمع الخصومُ

التعبُّد بتحريم الحلال

(الثامنة والعشرون) : التعبد بتحريم الحلال ، فردّ الله تعالى عليهم ذلك بقوله تعالى فى سورة الاعراف (٣١ - ٣٣) : ﴿ يا بَنِى آدمَ خُذوا زِينَتَكُمْ عندَ كلِّ مَسْجِدٍ وكُلوا واشْرَبوا ولا تُسْرِفوا ، إنهُ لا يُحِبُّ المُسْرِفين . قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينةَ اللهِ الَّتى أخْرَجَ لِعبادِهِ والطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْق ؟ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ آمَنوا فى الحياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يومَ القِيامةِ ، كَذٰلكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمون . قُلْ إنَّما حَرَّمَ رَبِّى الفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنها وما بَطَنَ والْإثْمَ والبَغْىَ بِغَيْرِ الحَقِّ وأَنْ تُشْرِكوا باللهِ ما لم يُنَزِّلْ بهِ سُلْطاناً وأنْ تَقُولوا علىٰ اللهِ مالا تَعْلَمون ﴾ ومعنى الآيات : يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، أى ثيابكم لمواراة عوراتكم عند طواف أو صلاة . وسبب النزول أنه كان أناس من الأعراب يطوفون بالبيت عراة حتى أن كانتِ المرأة لتطوف بالبيت وهى عريانة فتعلّق على سفلها سيوراً مثل هذه السيور التى تكون على وجه الحمر من الذباب وهى تقول :

اليومَ يبدو بعضه أو كله　　　وما بدا منه فلا أُحِلُّه

فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ وكُلوا واشْرَبوا ﴾ قال الكلبي : كان أهل الجاهلية لا يأكلون من الطعام إلا قوتاً ، ولا يأكلون دسماً فى أيام حجهم ، يعظمون بذلك حجهم ، فقال المسلمون : يا رسول الله ، نحن أحقُّ بذلك ، فأنزل الله تعالى الآية ، وفيه يظهر وجه ذكر الأكل والشراب هنا . ﴿ ولا تُسْرِفوا ﴾ بتحريم الحلال كما هو المناسب لسبب النزول ، ﴿ إنه لا يحبُّ المسرفين ﴾ بل يبغضهم ولا يرضى أفعالهم . ﴿ قل من حرَّم زينـةَ الله التى أخرج لعباده ﴾ من الثياب وكل ما يتجمل به وخلقه لنفعهم من الثياب كالقطن والكتان والحيوان كالحرير والصوف ﴿ والطيِّبات من الرزق ﴾ أى المستلذات ـ وقيل المحللات ـ ومن المآكل والمشارب كلحم الشاة وشحمها ولبنها ﴿ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ﴾ أى هى لهم بالاصالة لمزيد كرامتهم على الله تعالى ، والكفرة وان شاركوهم فيها فبالتبع ، فلا إشكال فى الاختصاص ﴿ خالِصةً يومَ القيامة ﴾ أى لا يشاركهم فيها غيرهم ﴿ كذلك نفصّل الآيات لقوم يعلمون ﴾ أى مثل تفصيلنا هذا الحكم نفصل سائر الاحكام لمن يعلم مافى تضامينها من المعانى الرائقة . ﴿ قل إنما حرَّم ربِّى الفواحِشَ ﴾ أى ما تزايد قبحه من المعاصى ،

ومنه ما يتعلق بالفروج ، ﴿ ما ظهرَ منها وما بطن ﴾ بدلٌ من الفواحش ، أى جهرها وسرها . وعن البعض « ما ظهر » الزنا علانية « وما بطن » الزنا سرا ، وكانوا يكرهون الاول ويفعلون الثانى فنهوا عن ذلك مطلقاً . وعن مجاهد « ما ظهر » التعرى فى الطواف « وما بطن » الزنا . والبعض يقول : الاول طواف الرجال بالنهار ، والثانى طواف النساء بالليل عاريات . ﴿ والإثم ﴾ أى ما يوجب الاثم ، وأصله الذم ثم أطلق على ما يوجبه من مطلق الذنب ، وذكر للتعميم بعد التخصيص بناء على ما تقدم من معنى الفواحش . ومنهم من قال : ان الاثم هو الخمر وعليه أهل اللغة ، وأنشدوا له قول الشاعر :

نهانا رسولُ الله أن نقــــرب الزنا
وأن نشرب الإثم الذى يوجب الوزرا

وقول الآخر :

شربتُ الإثمَ حتى ضلّ عقلى كذاك الإثم يذهب بالعقولِ

﴿ والبغىَ بغير الحق ﴾ وهو الظلم والاستطالة على الناس ، وأفرد بالذكر بناء على التعميم فيما قبله ، أو دخوله فى الفواحش المبالغــة فى الزجر عنه ﴿ وأنْ تُشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطانا ، وأنْ تقولوا على الله مالا تعلمون ﴾ بالالحاد فى صفاته والافتراء عليه كقولهم (الاعراف

٢٨) : ﴿ واللهُ أمرَنا بها ﴾ ولا يخفى أن متصوّفة زماننا على هذه الخصلة الجاهلية : فقد حرّموا على أنفسهم زينة الله والطيبات من الرزق ليعتقد الناس صلاحهم ، وابتدعوا الخلوات والرياضات وغير ذلك من شعائرهم فى المأكل والملبس وسائر شئونهم ، وما دروا أنهم بذلك من القوم الذين ضلّ سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا

الإلحادُ فى أسماء اللهِ سبحانَهُ وصفاتِهِ

(التاسعة والعشرون) : الإلحاد فى أسمائه وصفاته ، قال سبحانه فى سورة الاعراف (١٨٠) : ﴿ وللهِ الأسماء الحسنىٰ فادْعُوهُ بها وذَرُوا الَّذينَ يُلحِدونَ فى أسمائِهِ سَيُجْزَوْنَ ما كانوا يَعْمَلون ﴾ تفسير هذه الآية ﴿ ولله الاسماء الحسنى ﴾ تنبيه للمؤمنين على كيفية ذكره تعالى وكيفية المعاملة مع المخلين بذلك الغافلين عنه سبحانه وعما يليق بشأنه أثر بيان غفلتهم التامة وضلالتهم الطامة ﴿ فادعوه بها ﴾ إما من الدعوة بمعنى التسمية كقولهم دعوته زيداً أو بزيدَ أى سميته ، أو الدعاء بمعنى النداء كقولهم دعوت زيداً أى ناديته ، ﴿ وذروا الذين يلحدون فى أسمائه ﴾ أى يميلون وينحرفون فيها عن الحق الى الباطل ، يقال ألحد إذا مال عن القصد والاستقامة ، ومنه لحد القبر لكونه فى جانبه

بخلاف الضريح فانه في وسطه . والإلحاد في أسمائه سبحانه أن يسمى بما لا توقيف فيه ، أو بما يوهم معنى فاسداً ، كما في قول أهل البدو : يا أبا المكارم يا أبيض الوجه يا سخيّ ونحو ذلك ، فالمراد بترك المأمور به الاجتناب عن ذلك ، وبأسمائه ما أطلقوه عليه تعالى وسموه به على زعمهم ، لا أسماؤه تعالى حقيقة . وعلى ذلك يحمل ترك الإضمار بان يقال يلحدون بها . وقال تعالى ﴿ كَذٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمٰنِ ، قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ وهذه الآية في سورة الرعد (٣٠) . عن قتادة وابن جريج ومقاتل أن الآية نزلت في مشركي مكة لما رأوا كتاب الصلح يوم الحديبية وقد كتب فيه عليّ رضي الله عنه « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل بن عمرو : ما نعرف الرحمن إلا مسيلمة ، ومنهم من قال سمع أبو جهل قول رسول الله ﷺ « يا ألله يا رحمٰن » فقال : ان محمداً ينهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو إلٰهين ، فنزلت . وعن بعضهم أنه لما قيل لكفار قريش : اسجدوا للرحمٰن قالوا : وما الرحمٰن ، فنزلت . وقيل غير ذلك مما يطول . وقال تعالى ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ، قَالُوا : أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . وَمَا كُنْتُمْ

تَسْتَتِرونَ أنْ يَشْهَدَ عليكُمْ سَمْعُكُم ولا أبْصارُكُمْ ولا جُلودُكُمْ وَلٰكِنْ ظَنَنْتُمْ أنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمّا تَعْمَلُون . وذٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أرْداكُمْ فأصْبَحْتُمْ مِنَ الخاسِرِين ﴾ من سورة حم السجدة (٢١) . وفي هذه الآية إخبار أن أهل الجاهلية كانوا يلحدون في صفاته كما كانوا يلحدون في أسمائه تعالى . أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وجماعة عن ابن مسعود قال : كنت مستنداً بأستار الكعبة ، فجاء ثلاثة نفر ـ قُرَشيٌّ وثقفيان ، أو ثقفيٌّ وقرشيان ـ كثير لحم بطونهم ، قليل فقه قلوبهم ، فتكلموا بكلام لم أسمعه . فقال أحدهم : أترون الله يسمع كلامنا هذا ؟ فقال الآخر : إنا إذا رفعنا أصواتنا يسمعه ، وإذا لم نرفع لم يسمع . فقال الآخر : إن سمع منه شيئا سمعه كله . قال فذكرتُ ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله تعالى ﴿ وما كنتم تَسْتَتِرونَ أن يَشْهدَ عليكم سمعُكم ولا أبصارُكم ولا جلودُكم ولكنْ ظننتم أنَّ اللهَ لا يعلم كثيراً مما تعملون . ـ الى قوله ـ من الخاسرين ﴾ . فهذا هو الإلحاد في الصفات . وأنتَ تعلم أن ما عليه أكثر المتكلمين المسلمين من الإلحاد في الأسماء والصفات فوق ما كان عليه أهل الجاهلية ، فسموا الله بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان . ومنهم من قال : ليس لله صفات قامت به ، ومنهم من قال :

صفاته ليست عينَ ذاته ولا غيره ، ومنهم من قال : إن صفاته غيره ، ومنهم من قال : إن الله لم يتكلم بالكتب التى أنزلها ، وأثبتوا له الكلام النفسى وأنه لم يكلم أحداً من رسله ، الى غير ذلك من الإلحاد الذى حشوا به كتبهم وملأوها من هذا الهذيان ، وظنوا أن الآية مختصة بأهل الجاهلية وما دروا أنهم الفرد الكامل(١) لعمومها . ومن بصّره الله تعالى ونوّر قلبه أعرض عن أخذ عقائده من كتب هؤلاء الطوائف ، وتلقى معرفة إلهه من كتب السلف المشتملة على نصوص الكتاب والسنة

نِسبةُ النقائص إلى الله سبحانه

(الثلاثون) : نسبة النقائص اليه سبحانه كالولد والحاجة ، فان النصارى قالوا : المسيح ابن الله ، وطائفة من العرب قالوا : الملائكة بنات الله ، وقوم من الفلاسفة قالوا بتوليد العقول ، وقوم من اليهود قالوا العزير ابن الله ، الى غير ذلك . وقد نزّه الله نفسه عن كل ذلك ونفاه عنه بقوله تعالى ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَد . اللهُ الصَّمَد . لم يَلِدْ ولم يُولَدْ ولم يَكُنْ له كُفُواً أحَد ﴾ وبقوله (الصافات ١٥١ - ١٥٢) : ﴿ ألا إنَّهُمْ مِنْ إفْكِهِمْ لَيقولُون : وَلَدَ اللهُ ، وإنَّهمْ لَكاذِبون ﴾ وقوله (الانعام ١٠٠ - ١٠١) : ﴿ وجَعَلوا لِلهِ شُرَكاءَ الجِنَّ وخَلَقَهُمْ

وخَرَقوا لهُ بَنِينَ وبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، سُبْحانَهُ وتَعالىٰ عَمَّا يَصِفُون . بَدِيعُ السَّماواتِ والأَرْضِ أَنَّى يَكونُ لهُ وَلَدٌ ولم تَكُنْ لهُ صاحِبَةٌ وخَلَقَ كلَّ شَيْءٍ ، وهُوَ بكلِّ شَيْءٍ عَلِيم ﴾ وهذا يعم جميع الأنواع التي تذكر في هذا الباب عن بعض الأمم ، كما أن ما نفاه من اتخاذ الولد يعم أيضاً جميع أنواع الاتخاذات ، لا اصطفاؤه ، كما قال تعالى (المائدة ١٨) : ﴿ وقالتِ اليهودُ والنصارَى نحنُ أَبْناءُ اللهِ وأحِبَّاؤُهُ ، قُلْ فلِمَ يُعذِّبُكُمْ بِذُنوبِكُمْ ، بَلْ أَنتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَق ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ ويُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ ، ولِلهِ مُلْكُ السَّماواتِ والأَرْضِ وما بينهما ، وإليهِ المَصِير ﴾ قال السُدِّى : قالوا إن الله تعالى أوحىٰ الى اسرائيل إن ولدكَ بِكرى من الولد فأُدخِلهم النار فيكونون فيها أربعين يوماً حتى تطهرهم وتأكل خطاياهم ، ثم ينادى مناد : أخرجوا كل مختون من بنى اسرائيل . وقد قال الله تعالى (المؤمنون ٩١) : ﴿ ما اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلَه ﴾ وقال (الاسراء ١١١) : ﴿ وقُلِ الحمدُ للهِ الذى لم يتَّخِذْ وَلَداً ولم يَكُنْ له شَريكٌ فى المُلْكِ ولم يَكُنْ لهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلّ ﴾ وقال تعالى (الفرقان ١ - ٢) : ﴿ تَبارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الفُرْقانَ علىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلعالَمِينَ نَذِيراً . الَّذِى لهُ مُلْكُ السَّماواتِ والأَرْضِ . ولم يَتَّخِذْ وَلَداً ولم يَكُنْ لهُ شَرِيكٌ فى المُلْكِ

وخَلَقَ كلَّ شَيْءٍ فقَدَّرَهُ تقْدِيرا ﴾ ، (الانبياء ٢٦-٢٩) : ﴿ وقالوا اتَّخذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً سُبْحانه ، بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُون . لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وهُمْ بأَمْرِهِ يَعْمَلُون . يَعْلَمُ ما بَيْنَ أيْدِيهِمْ وما خَلْفَهُمْ ولا يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُون . ومَنْ يَقُلْ مِنهُمْ إنِّى إلٰهٌ مِنْ دُونِهِ فذٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ، كذٰلِكَ نَجْزِى الظّالِمِين ﴾ وقال سبحانه وتعالى (النحل ٥١ - ٥٧) : ﴿ وقالَ اللهُ لا تَتَّخِذوا إلٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إنّما هُوَ إلٰهٌ واحِد ، فإيّاىَ فارْهَبُون . ولَهُ مافى السّماواتِ والأرْضِ ولهُ الدِّينُ واصِباً ﴾ الى قوله ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِما لا يَعْلَمونَ نَصِيبا ﴾ الى قوله ﴿ ويَجْعَلُونَ لِلّهِ البَناتِ سُبْحانه ولَهُمْ ما يَشْتَهون ﴾ . وقال الله تعالى (الاسراء ٣٩ - ٤٢) : ﴿ ولا تَجْعَلْ معَ اللهِ إلٰهاً آخَرَ فتُلْقىٰ فى جَهَنَّمَ مَلوماً مَدْحُورا . أفأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بالْبَنِينَ واتَّخَذَ مِنَ المَلائِكَةِ إناثاً ، إنَّكُمْ لَتَقولونَ قَوْلاً عَظِيما . ولقد صَرَّفْنا فى هٰذا القُرْآنَ لِيَذَّكَّرُوا وما يَزِيدُهمْ إلاّ نُفُوراً . قُلْ لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كما يَقُولونَ إذاً لابْتَغَوْا إلىٰ ذِى العَرْشِ سَبِيلا ﴾ وقال (الصافات ١٤٩ - ١٦٣) : ﴿ فاسْتَفْتِهِمْ ألِرَبِّكَ البَناتُ ولَهُمُ البَنون . أمْ خلَقْنا المَلائِكَةَ إناثاً وهمْ شاهِدُون . ألا إنَّهمْ مِنْ إفْكِهِمْ

لَيَقُولون وَلَدَ اللهُ وإنَّهُمْ لَكاذِبُون . أَصْطَفَى البَنات على البَنين . ما لَكُمْ كيفَ تحكُمون . أفلا تَذَكَّرُون . أمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبين. فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ إنْ كُنْتُمْ صادِقين . وجَعَلُوا بَيْنَهُ وبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَباً ، ولَقَدْ عَلِمَتِ الجِنَّةُ إنَّهُمْ لَمُحْضَرون . سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُون . إلاّ عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِين . فإنَّكُمْ وما تَعْبُدُون . ما أَنْتُمْ عليهِ بِفاتِنين . إلاّ مَنْ هُوَ صالِ الجَحِيم﴾ . وقال (النجم ١٩ ـ ٢٧) : ﴿أفَرَأَيْتُمُ اللاتَ والعُزَّى . ومَناةَ الثالثةَ الأُخْرَى . أَلَكُمُ الذَّكَرُ ولَهُ الأُنْثَى تِلكَ إذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى . إنْ هِيَ إلاّ أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ ، إنْ يَتَّبِعونَ إلاّ الظَّنَّ وما تَهْوَى الأَنْفُسُ ، ولَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الهُدَى ـ الى قوله ـ إنَّ الذينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ المَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى﴾ وقال تعالى (الزخرف ١٥) : ﴿وجَعَلوا لهُ مِنْ عِبادِه جُزْءاً﴾ قال بعض المفسرين « جزءا » أى نصيباً وبعضا . وقال بعضهم : جعلوا لله نصيباً من الولد . وعن قتادة ومقاتل : عدلا . وكلا القولين صحيح ، فانهم يجعلون له ولداً والولد يشبه أباه ، ولهذا قال (الزخرف ١٧) : ﴿ وإذا بُشِّرَ أَحَدُهم بما ضَرَبَ لِلرَّحْمٰنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً ﴾ أى البنات ، كما قال فى الآية الأخرى (النحل ٥٨) : ﴿ وإذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بالأُنْثَى ظَلَّ

وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وهُوَ كَظِيمٌ ﴾ فقد جعلوها للرحمن مثلا ، وجعلوا له من عباده جزءاً ، فان الولد جزء من الوالد ، قال ﷺ « إنما فاطمة بضعة مني » وقوله (الانعام ١٠٠) : ﴿ وجَعَلوا لِلهِ شُرَكاءَ الْجِنَّ وخَلَقَهُمْ وخَرَقُوا له بَنِينَ وبَناتٍ بِغَيْرِ علم ﴾ قال الكلبي : نزلت في الزنادقة ، قالوا : إن الله وإبليس شريكان . فالله خالق النور والناس والدواب ، وإبليسُ خالق الظلمة والسباع والحيات والعقارب . وأما قوله ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ﴾ فقيل : هو قولهم : الملائكة بنات الله ، وسمى الملائكة جناً لاختفائهم عن الأبصار ، وهو قول مجاهد وقتادة . وقيل : قالوا لحيّ من الملائكة يقال لهم الجن ومنهم ابليس : هم بنات الله . وقال الكلبي قالوا لعنهم الله : بل بذور يخرج منها الملائكة . وقوله ﴿ خرقوا له بنين وبنات بغير علم ﴾ قال بعض المفسرين : هم كفار العرب قالوا : الملائكة والاصنام بنات الله . واليهود قالوا : عزير ابن الله . والذين كانوا يقولون من العرب ان الملائكة بنات الله وما نقل عنهم من أنه صاهر الجن فولدت له الملائكة فقد نفاه عنه بامتناع الصاحبة وبامتناع أن يكون منه جزء فانه صمد . وقوله ﴿ ولم تكن له صاحبة ﴾ وهذا لأن الولادة لا تكون إلاّ من أصلين سواء في ذلك تولد الاعيان -التي تسمى الجواهر- وتولد الاعراض والصفات بل ولا يكون تولد الاعيان إلا بانفصال جزء من الوالد ، فاذا امتنع أن

تكون له صاحبة امتنع أن يكون له ولد، وقد علموا كلهم أن لا صاحبة له لا من الملائـكة ولا من الجن ولا من الانس ، فلم يقل أحد منهم إن له صاحبة ، فلهذا احتج بذلك عليهم . وما حكى عن بعض كفار العرب أنه صاهر الجن فهذا فيه نظر ، وذلك إن كان قد قيل فهو مما يعلم انتفاؤه من وجوه كثيرة، وكذلك ما قالته النصارى من أن المسيح ابن الله وما قاله طائفة من اليهود ان العزير ابن الله فانه قد نفاه سبحانه بهذا وبهذا، وتمام الكلام فى هذا المقام فى كتاب (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) و (تفسير سورة الاخلاص) وغيرهما من كتب شيخ الاسلام تقى الدين قدس الله روحه

تنزيههم المخلوق عما نسبوه للخالق

(المسألة الحادية والثلاثون) : تنزيه المخلوق عما نسبوه للخالق ، مثل تنزيه أحبارهم عن الولد والزوجة لأنهم يقولون : إن الراغبين فى استحصال الـكمالات كالرهبان وأضرابهم يترفعون عن أن يتدنسوا بدناءة التمتع بالنساء اقتداء بالمسيح عليه السلام . فانظر الى سخافة العقول وما قادهم اليه ضلالهم حتى اعترضوا على سيدنا ومولانا محمد ﷺ فى زواجه . وما أحسن ما قال الفاروقى[1] رداً على بعض أحبار

(١) عبد الباقى العمرى من شعراء العراق فى القرن الثالث عشر الهجرى

النصارى بقوله :

قل للفرسنل قدوة الرهبان الجاثليق البترك الربانى
أنت الذى زعم الزواج نقيصة ممن حماه الله عن نقصان
ونسيتَ تزويج الإله بمريم فى زعم كل مثلِّث نصرانى

ومن جعل من العرب الملائكة بنات الله كان يأنف منهن ، وسنَّ وَأْدهنَّ وقتلهن . ونسبوا لله ما يكرهون . والمقصود أن هذه المقالات وأشباهها منشأها الجهل بما جاءت به الرسل وعدم تحكيم العقل ، وإلاّ فأهل البصائر لا يتطرق اليهم هذا الخلل . والله الموفق

قولُهم بالتعطيل

(الثانية والثلاثون) : القول بالتعطيل كما كان يقوله آل فرعون . والتعطيل إنكار أن يكون للعالَم صانع ، كما قال فرعون لقومه (القصص ٣٨) : ﴿ ما عَلِمْتُ لَكُمْ من إلٰهٍ غَيْرى ﴾ ونحو ذلك ، ولم يَخلُ العالم عن مثل هذه الجهالات فى كل عصر من العصور ، وأبناء هذا الزمان إلا النادر على هذه العقيدة الباطلة ، ولو نظروا بعين الانصاف والتدبر لعلموا أن كل موجود فى العالم يدل على خالقه وبارئه :

وفى كلّ شىء له آيةٌ تدلُّ على أنه واحدُ

ومن أين للطبيعة إيجاد مثل هذه الدقائق التى نجدها فى الآفاق والأنفس وهى عديمة الشعور لا علم لها ولا فهم ، تعالى الله عما يقولون علوّا كبيراً

الشركة فى الملك

(الثالثة والثلاثون) : الشركة فى الملك كما تقوله المجوس . والمجوس أمة تعظم الأنوار والنيران والماء والأرض ، ويقرون بنبوّة زرادشت ، ولهم شرائع يصيرون اليها . وهم فرق شتى : منهم المَزْدَكية أصحاب مَزْدَك الموبذ ، والموبذ عندهم العالم القدوة ، وهؤلاء يرون الاشتراك فى النساء والمكاسب كما يشترك فى الهواء والطرق وغيرها . ومنهم الخرّمية أصحاب بابك الخرمى ، وهم شر طوائفهم لا يقرون بصانع ولا مَعاد ولا نبوّة ولا حلال ولا حرام ، وعلى مذهبهم طوائف القرامطة والاسماعيلية والنصيرية والكيسانية والزرارية والحكمية وسائر العُبَيدية الذين يسمون أنفسهم الفاطمية ، فكل هؤلاء يجمعهم هذا المذهب ويتفاوتون فى التفصيل . فالمجوس شيوخ هؤلاء كلهم وأئمتهم وقدوتهم ، وان كان المجوس قد يتقيدون بأصل دينهم وشرائعهم ، وهؤلاء لا يتقيدون بدين من ديانات العالم ولا بشريعة من الشرائع

انكار النبوّات

(الرابعة والثلاثون) : إنكار النبوّات . وكانوا يقولون ما حكى الله عنهم بقوله فى الانعام (٩٠ ـ ٩١) : ﴿ أُولٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ، قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عليه أَجْراً ، إن هُوَ إلاّ ذِكْرَى للعالَمِين . وما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إذْ قالوا ما أَنْزَلَ اللهُ على بَشَرٍ مِنْ شَيْء ، قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الكِتابَ الذى جاء به مُوسىٰ نُوراً وهُدَى لِلنّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ تُبْدُونَها وتُخْفُونَ كَثِيراً وعُلِّمْتُمْ مالم تَعْلَموا أنتُمْ ولا آباؤُكم، قُلِ اللهُ ، ثمَّ ذَرْهُمْ فى خَوْضِهِم يَلْعَبون ﴾ تفسير هذه الآية : قوله ﴿ وما قَدَرُوا الله ﴾ ، شروع فى تقرير أمر النبوّة ، بعد ما حكى سبحانه عن إبراهيم عليه السلام أنه ذكر دليل التوحيد وابطال الشرك وقرر سبحانه ذلك بأفصح الدليل بأوضح وجه ﴿ حقّ قدره ﴾ أى حق معرفته . وعن بعضهم : ما عظموا الله حق تعظيمه ، إذ قالوا منكرين لبعثة الرسل وانزال الكتب كافرين بنعمه الجليلة فيهما ﴿ ما أنزل الله على بشر من شىء ﴾ أى شيئاً من الأشياء . واختلف فى قائلى ذلك القول الشنيع ، فعن مجاهد أنهم مشركو قريش والجمهور على أنهم اليهود . ومرادهم من ذلك الطعن فى رسالته ﷺ على سبيل المبالغة ، فقيل لهم على سبيل الالزام ﴿ قل من أنزل الكتاب

الذى جاء به موسى ﴾ فان المراد أنه تعالى قد أنزل التوراة على موسى عليه السلام ولا سبيل لكم الى انكار ذلك، فلم لا تجوّزون إنزال القرآن على محمد ﷺ . والكلام فى إثبات النبوات مفصل فى غير هذا الموضع . والمقصود أن إنكارها من سنن الجاهلية ، وفى الناس اليوم كثير ممن هو على شاكلتهم ومعوجّ طريقهم

جُحودُهم القَدَر، واحتجاجُهم به على الله

(الخامسة والثلاثون) : جحود القدر والاحتجاج به على الله تعالى ومعارضة شرع الله بقدر الله . وهذه المسألة من غوامض مسائل الدين ، والوقوف على سرّها عسر إلا على من وفقه الله تعالى ، ولابن القيم كتاب جليل فى هذا الباب سماه (شفاء العليل ، فى القضاء والقدر والحكمة والتعليل) وقد أبطل الله سبحانه هذه العقيدة الجاهلية بقوله تعالى فى آخر سورة الأنعام (١٤٨ ـ ١٤٩) : ﴿ سَيَقولُ الَّذِينَ أشْرَكوا لَوْ شاءَ اللهُ ما أَشْرَكْنا ولا آباؤُنا ولا حَرَّمْنا مِنْ شَيء ، كَذٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حتَّى ذاقُوا بأْسَنا ، قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فتُخْرِجُوهُ لَنا ، إنْ تَتَّبِعُونَ إلاّ الظَّنَّ وإنْ أنتُمْ إلاّ تَخْرُصون . قُلْ فللهِ الحُجَّةُ البالِغةُ فلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أجْمَعِين ﴾ . تفسير هذه الآية : ﴿ سيقول الذين اشركوا ﴾ حكاية لفنّ آخر من أباطيلهم

﴿ لو شاء الله ما أشرَكْنا ولا آباؤنا ولا حرَّمْنا من شيء ﴾ لم يريدوا بهذا الكلام الاعتذار عن ارتكاب القبيح ، إذ لم يعتقدوا قبح أفعالهم ، بل هم كما نطقت به الآيات يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، وأنهم إنما يعبدون الاصنام ليقرّبوهم الى الله زُلفىٰ ، وأن التحريم إنما كان من الله عز وجل ، فما مرادهم بذلك إلا الاحتجاج على أن ما ارتكبوه حق ومشروع ومرضيّ عند الله تعالى ، على أن المشيئة والارادة تساوى الأمر وتستلزم الرضا كما زعمت المعتزلة ، فيكون حاصل كلامهم أن ما نرتكبه من الشرك والتحريم وغيرهما تعلقت به مشيئة الله تعالى وإرادته ، وكل ما تعلقت به مشيئته سبحانه وإرادته فهو مشروع ومرضيّ عند الله تعالى . وبعد أن حكى سبحانه وتعالى ذلك عنهم ردّ عليهم بقوله عز من قائل ﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم ﴾ وهم أسلافهم المشركون . وحاصله أن كلامهم يتضمن تكذيب الرسل عليهم السلام وقد دلت المعجزة على صدقهم . أو نقول حاصله أن ما شاء الله يجب ، وما لم يشأ يمتنع ، وكل ما هذا شأنه فلا تكليف به لكونه مشروطا بالاستطاعة ، فينتج أن ما ارتكبه من الشرك وغيره لم يتكلف بتركه ولم يبعث له نبي . فردّ الله تعالى عليهم بأن هذه كلمة صدق أريد بها باطل ، لأنهم أرادوا بها أن الرسل عليهم السلام فى دعواهم البعثة والتكليف كاذبون . وقد ثبت صدقهم بالدلائل القطعية ، ولكون

ذلك صدقاً أريد به باطل ذمهم الله تعالى بالتكذيب . ووجوب وقوع متعلق المشيئة لا ينافى صدق دعوى البعثة و التكليف ، لأنهما لاظهار المحجة وابلاغ الحجة ﴿ حتى ذاقوا بأسنا ﴾ أى نالوا عذابنا الذى أنزلناه عليهم بتكذيبهم ، و فيه إيماء الى أن لهم عذابا مدّخراً عند الله تعالى لأن الذوق أول ادراك الشيء ﴿ قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ﴾ أى هل لكم من علم بأن الإشراك وسائر ما أنتم عليه مرضىّ الله تعالى فتظهروه لنا بالبرهان ؟ وهذا دليل على أن المشركين أمم استوجبوا التوبيخ على قولهم ذلك ، لأنهم كانوا يهزأون بالدين ، و يبغون رد دعوة الانبياء عليهم السلام ، حيث قرع مسامعهم من شرائع الرسل عليهم السلام تفويض الأمور اليه سبحانه و تعالى ، فحين طالبوهم بالاسلام و التزام الأحكام احتجوا عليهم بما أخذوه من كلامهم مستهزئين بهم عليهم الصلاة والسلام ، ولم يكن غرضهم ذكر ما ينطوى عليه عقدهم ، كيف لا والإيمان بصفات الله تعالى فرع الايمان به عز شأنه ، وهو عنهم مناط العيوق . ﴿ إن تتبعون إلا الظن و إن أنتم إلا تخرصون ﴾ أى تكذبون على الله تعالى . ﴿ قل فلله الحجة البالغة ﴾ أى البينة الواضحة التى بلغت غاية المتانة و القوة على الاثبات ، والمراد بها فى المشهور الكتاب والرسول والبيان ﴿ فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ بالتوفيق لها والحمل عليها ، ولكن شاء هداية البعض الصارفين اختيارهم

الى سلوك طريق الحق ، وضلال آخرين صرفوه الى خلاف ذلك .

ومن الناس من ذكر وجهاً آخر فى توجيه ما فى الآية ، وهو أن الرد عليهم إنما كان لاعتقادهم أنهم مسلمون اختيارهم وقدرتهم ، وأن إشراكهم إنما صدر منهم على وجه الاضطرار ، وزعموا أنهم يقيمون الحجة على الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام بذلك ، فردَّ الله تعالى قولهم فى دعواهم عدم الاختيار لأنفسهم ، وشبههم بمن اغتر قبلهم بهذا الخيال فكذب الرسل وأشرك بالله عز وجل واعتمد على أنه إنما يفعل ذلك بمشيئة الله تعالى ورام الخام الرسل بهذه الشبهة . ثم بيّن سبحانه انهم لا حجة لهم فى ذلك ، وأن الحجة البالغة له تعالى لا لهم ، ثم أوضح سبحانه أن كل واقعٍ واقعٌ بمشيئته ، وأنه لم يشأ منهم إلا ما صدر عنهم ، وأنه تعالى لو شاء منهم الهدايةّ لاهتدوا أجمعين . والمقصود أن يتمحض وجه الردّ عليهم وتتخلص عقيدة نفوذ السنة وعموم تغلغلها بكل كائن عن الرد ، وينصرف الردّ الى دعواهم سلب الاختيار لأنفسهم ، وأن إقامتهم الحجة بذلك خاصة . واذا تدبرتَ الآية وجدت صدرها دافعاً لصدور الجبرية ، وعجزها معجزاً للمعتزلة ، إذ الأول مثبت أن للعبد اختياراً وقدرة على وجه يقطع حجته وعذره فى المخالفة والعصيان ، والثانى مثبت نفوذ مشيئة الله تعالى فى العبد وأن جميع أفعاله على وفق المشيئة الآلهية . وبذلك تقوم الحجة البالغة لأهل السنة على

المعتزلة ، والحمد لله رب العالمين . ومنهم من وجّه الآية بأن مرادهم ردّ دعوة الانبياء عليهم السلام على معنى أن الله تعالى شاء شركنا وأراده منا ، وأنتم تخالفون ارادته حيث تدعونا الى الايمان ، فوبخهم سبحانه وتعالى بوجوه عدَّة : منها قوله سبحانه ﴿ فلله الحجة البالغة ﴾ فانه بتقدير الشرط أى اذا كان الامر كما زعمتم ﴿ فلله الحجة البالغة ﴾ ، وقوله سبحانه ﴿ فلو شاء ﴾ بدل منه على سبيل البيان ، أى لو شاء لدل كلاً منكم ومن مخالفيكم على دينه ، فلو كان الأمر كما تزعمون لكان الاسلام أيضاً بالمشيئة ، فيجب أن لا تمنعوا المسلمين من الاسلام كما وجب بزعمكم أن لا يمنعكم الأنبياء عن الشرك ، فيلزمكم أن لا يكون بينكم وبين المسلمين مخالفة ومعاداة ، بل موافقة وموالاة . وحاصله أن ما خالف مذهبكم من النحل يجب أن يكون عندكم حقاً لانه بمشيئة الله تعالى فيلزم تصحيح الاديان المتناقضة

وفى سورة النحل (٣٥) : ﴿ وقالَ الَّذِينَ أشْرَكوا لَوْ شاءَ اللّٰهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ ولا آباؤُنا ولا حَرَّمْنا مِنْ دُونهِ مِنْ شَيْءٍ ، كذلك فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم ، فهلْ على الرُّسُلِ إلاَّ البَلاغُ المُبِين ﴾ . الكلام على هذه الآية كالكلام على الآية السابقة ، ولا تراهم يتشبثون بالمشيئة إلا عند انخذال الحجة . ألا ترى كيف ختم

بنحو آخر مجادلاتهم فى سورة الانعام فى الآية السابقة ، وكذلك فى سورة الزخرف (١٩ - ٢٢) : وهو قوله تعالى ﴿ وَجَعَلوا الملائكةَ الذينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمٰنِ إناثاً ، أشَهِدوا خَلقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهادَتهُمْ ويُسْألون . وقالوا لو شاءَ الرَّحْمٰنُ ما عَبَدْناهم ، ما لهم بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إنْ هُمْ إلاّ يَخْرُصون . أمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فهُمْ به مُسْتَمْسِكون . بلْ قالوا إنّا وَجَدْنا آباءَنا على أُمَّةٍ وإنّا على آثارِهِمْ مُهْتَدُون ﴾ ويكفى فى الانقلاب ما يشير اليه قوله سبحانه ﴿ قل فلله الحجة البالغة ﴾ والمراد بما حرموه السّوائب والبَحائر وغيرها . وفى تخصيص الاشتراك والتحريم بالنفى لأنهما أعظم وأشهر ما هم عليه . وغرضهم من ذلك تكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام والطعن فى الرسالة رأساً ، فان حاصله أى ما شاء الله يجب وما لم يشأ يمتنع ، فلو أنه سبحانه وتعالى شاء أن نوحده ولا نشرك به شيئاً ونحلّل ما أحلّه ولا نحرّم شيئاً مما حرّمنا كما تقول الرسل وينقلونه من جهته تعالى لكان الامر كما شاء من التوحيد ونفى الاشراك وتحليل ما أحله وعدم تحريم شىء من ذلك ، وحيث لم يكن كذلك ثبت أنه لم يشأ شيئاً من ذلك بل شاء ما نحن عليه ، وتحقق أن ما يقوله الرسل عليهم السلام من تلقاء أنفسهم . فرد الله تعالى عليهم بقوله ﴿ كذلك فعل الذين من

قبلهم ﴾ من الأمم ، أى أشركوا بالله تعالى وحرموا من دونه ما حرموا وجادلوا رسلهم بالباطل ليدحضوا به الحق ﴿ فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ﴾ أى ليست وظيفتهم إلا البلاغ للرسالة الموضح طريق الحق والمظهر أحكام الوحى التى منها تحتم تعلق مشيئته تعالى باهتداء من صرف قدرته واختياره الى تحصيل الحق لقوله تعالى ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ . وأما إلجاؤهم الى ذلك وتنفيذ قولهم عليهم شاءوا أو أبوا كما هو مقتضى استدلالهم فليس ذلك من وظيفتهم ، ولا من الحكمة التى يتوقف عليها التكليف ، حتى يستدل بعدم ظهور آثاره على عدم حقيقة الرسل عليهم السلام أو على عدم تعلق مشيئته تعالى بذلك ، فان ما يترتب عليه الثواب والعقاب من الافعال لا بدَّ فى تعلق مشيئته تعالى بوقوعه من مباشرتهم الاختيارية وصرف اختيارهم الجزئى الى تحصيله ، وإلا لكان الثواب والعقاب اضطراريين . والكلام على هذه الآية ونحوها مستوفى فى تفسير (روح المعانى) وغيره . فجحود القدر والاحتجاج به على الله ومعارضة شرع الله بقدره كل ذلك من ضلالات الجاهلية . والمقصود أنه لا جبر ولا تفويض ، ولكن أمر بين أمرين ، فمن زلت قدمه عن هذه الجادة كان على ما كان عليه أهل الجاهلية ، وهى الطريقة التى ردَّ عليها الله سبحانه ورسوله ﷺ

مَسَبَّةُ الدهر

(السادسة والثلاثون) : مسبّة الدهر . كقولهم فى سورة الجاثية (٢٤) : ﴿ وما يُهْلِكُنا إلاّ الدَّهر ﴾ ، وذلك أن الله تعالى أراد بيان أحكام ضلالهم والختم على سمعهم وقلوبهم وجعل غشاوة على أبصارهم فحكى عنهم ما صدر عنهم بقوله سبحانه وتعالى ﴿ وقالوا ما هِيَ إلاّ حَياتُنا الدُّنيا ﴾ التى نحن فيها ﴿ نَموتُ ونَحْيىٰ ﴾ أى تموت طائفة وتحيي طائفة ولا حشر أصلا . ومنهم من قال : إن كثيراً من عبّاد الأصنام كان يقول بالتناسخ ، وعليه فالمراد بالحياة إعادة الروح لبدن آخر ﴿ وما يُهْلِكُنا إلاّ الدَّهر ﴾ أى طول الزمان . وإسنادهم الإهلاك الى الدهر إنكار منهم لملك الموت وقبضه الأرواح بأمر الله تعالى ، وكانوا يسندون الحوادث مطلقاً اليه لجهلهم أنها مقدَّرة من عند الله تعالى وأشعارهم لذلك مملوءة من شكوى الدهر[1] وهؤلاء معترفون

---

(١) مثل قول قائلهم :

أشاب الصغير وأفنى الكبير ... كر الغداة ومر العشى

ومثل قول الآخر :

منع البقاء تقلب الشمس ... وطلوعها من حيث لا تمسى

وقول الآخر :

رمانى الدهر بالأرزاء حتى ... فؤادى فى غشاء من نبال

وكنت إذا أصابتنى سهام ... تكسرت النصال على النصال

والشعر فى ذلك قديماً وحديثاً كثير

بوجود الله تعالى ، فهم غير الدهرية ، فانهم مع إسنادهم الحوادث الى الدهر لا يقولون بوجوده ﴿ سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ﴾ والكل يقول باستقلال الدهر بالتأثير . وقد جاء النهى عن سبّ الدهر أخرج مسلم « لا يسبّ أحدكم الدهر ، فان الله هو الدهر » وفى رواية لأبى داود والحاكم « قال الله عز وجل : يؤذينى ابن آدم يقول ، يا خيبة الدهر ، فلا يقل أحدكم ياخيبة الدهر ، فانى أنا الدهر أقلّب ليله ونهاره » وروى الحاكم أيضاً « يقول الله عز وجل : استقرضتُ عبدى فلم يقرضنى ، وشتمنى عبدى وهو لا يدرى ، يقول : وادهراه ! وأنا الدهر » وروى البيهقى « لا تسبّوا الدهر . قال الله عزّ وجل : أنا الأيام والليالى أجددها وأبليها وآتى بملوك بعد ملوك » . ومعنى ذلك أن الله تعالى هو الآتى بالحوادث ، فاذا سببتم الدهر على أنه فاعل ، وقع السبّ على الله عز وجل . ﴿ وما لهُم بذلك من عِلْم ﴾ أى ليس لهم بما ذكر من قَصْر الحياة على ما فى الدنيا ونسبة الإهلاك الى الدهر علم مستند الى عقل أو نقل ﴿ إنْ هُمْ إلاّ يَظُنّون ﴾ أى ما هم إلاّ قوم قصارى أمرهم الظن والتقليد من غير أن يكون لهم ما يصح أن يتمسك به فى الجملة . وقد ذكرنا فى غير هذا الموضع ما يتعلق بالدهريين ، والمقصود أن من يقول باسناد الحوادث الى غير الله تعالى كالدهر فذلك ليس له مستند عقلى ولا نقلى ، بل هو محض جهل ، وقائله جاهل فى أى عصر كان .

ولأهل زماننا حظ وافر من هذا الاعتقاد الباطل . والله المستعان

إضافةُ نِعَمِ الله الى غيره

(السابعة والثلاثون) : إضافة نعم الله الى غيره . قال الله تعالى في سورة النحل (٨٣) : ﴿ يَعْرِفونَ نِعْمةَ اللهِ ثمَّ يُنكِرونَها وأكثرُهم الكافرون ﴾ وقد عدد الله تعالى نعمه على عباده في هذه السورة (٧٨ - ٨٠) الى أن قال ﴿ وجَعَلَ لكم مِنَ الجبالِ أكناناً ، وجَعَلَ لكم سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الحرَّ وسَرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ، كذلكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عليكُمْ لعلَّكُمْ تُسْلِمون . فانْ تَوَلَّوْا فانّما عليكَ البَلاغُ المُبين . يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثمَّ يُنكِرُونَها وأكثرُهُم الكافِرُون ﴾ فقوله ﴿ يعرفون نعمة الله ﴾ إلخ استئنافٌ لبيان أن تولى المشركين وإعراضهم عن الإسلام ليس لعدم معرفتهم نعمة الله سبحانه وتعالى أصلا ، فانهم يعرفونها أنها من الله تعالى ، ثم ينكرونها بأفعالهم حيث لم يفردوا مُنعِمَها بالعبادة ، فكأنهم لم يعبدوه سبحانه وتعالى أصلا ، وذلك كفران منزَّلٌ منزلة الإنكار . وأخرج ابن جرير وغيره عن مجاهد أنه قال : إنكارهم إياها قولهم : ورثناها من آبائنا . وأخرج هو وغيره أيضاً عن عون بن عبد الله أنه قال : إنكارهم إياها أن يقول الرجل : لولا فلان أصابني كذا وكذا ، ولولا فلان لم أصب كذا

وكذا . وفى لفظ : إنكارها إضافتها إلى الأسباب . و بعضهم يقول : إنكارهم قولهم هى بشفاعة آلهتهم عند الله تعالى . ومنهم من قال : النعمة هنا محمد ﷺ ، أى يعرفون أنه عليه الصلاة والسلام نبىّ بالمعجزات ، ثم ينكرون ذلك ويجحدونه عناداً ﴿ وأكثرهم الكافرون ﴾ أى المنكرون بقلوبهم غير المعترفين بما ذكر . والتعبير بالأكثر إما لأن بعضهم لم يعرف الحق لنقصان عقله وعدم اهتدائه اليه ، أو لعدم نظره فى الأدلة نظراً يؤدى الى المطلوب ، أو لانه لم تقم عليه الحجة لكونه لم يصل الى حدّ المكلفين لصغره ونحوه ، وإما لأنه يقام مقام الكل ، فاسناد المعرفة والانكار المتفرع عليها الى ضمير المشركين على الإطلاق من باب إسناد حال البعض الى الكل

ومما يجرى هذا المجرى قوله تعالى فى سورة الواقعة (٨١-٨٢) : ﴿ أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ . وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ أى تقولون : مُطِرْنا بِنَوْء كذا وكذا . روى مسلم وغيره عن ابن عباس قال : مُطِر الناس على عهد رسول الله ﷺ ، فقال عليه الصلاة والسلام «أصبح من الناس شاكر ، ومنهم كافر . قالوا : هذه رحمة وضعها الله» وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا ، فنزلت هذه الآية ﴿ فلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ حتى بلغ ﴿ وتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أنكم تُكَذِّبُونَ ﴾

إلى غير ذلك من الآثار . والمقصود أن اسناد النعم الى غير منعمِها الحقيقى كفران لها . وقد ذكرنا مذهب العرب فى الأنواء فى غير هذا الموضع وفصلناه تفصيلا ، وذكرنا شِعرَهم الدال على مذهبهم هذا . والله الموفق

الكُفْرُ بآيات الله

(الثامنة والثلاثون) : الكفر بآيات الله . و النصوص الدالة على ذلك فى القرآن كثيرة ، منها قوله تعالى فى الكهف (١٠٥-١٠٦) : ﴿ أولٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بآياتِ رَبِّهِمْ ولِقائِهِ فَحَبِطَتْ أعمالُهمْ فلا نُقِيمُ لهمُ يومَ القِيامَةِ وَزْناً . ذٰلكَ جزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بما كَفَروا واتَّخَذُوا آياتى ورُسُلى هُزوا ﴾ بعد قوله سبحانه (الكهف ١٠٣ - ١٠٤) : ﴿ هل نُنَبِّئُكُمُ بِالأَخْسَرِينَ أعْمالاً ، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فى الحياةِ الدُّنْيا وهم يَحْسَبُونَ أنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعا . أولٰئِكَ ﴾ الخ فقوله « أولئك » كلام مستأنف منه، مسوق لتكميل تعريف الأخسرين وتبيين خسرانهم وضلال سعيهم وتعيينهم بحيث ينطبق التعريف على المخاطبين . أى أولئك المنعوتون بما ذكر من ضلال السعى والحسبان المذكور ﴿ الذين كفروا بآيات ربهم ﴾ بدلائله سبحانه الداعية الى التوحيد الشاملة للسمعية و العقليه ﴿ ولقائه ﴾ هو كناية عن البعث والحشر وما يتبع ذلك من أمور الآخرة ، أى لم يؤمنوا بذلك على ما هو

عليه ﴿ فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ أى فنزدرى بهم ونحتقرهم . ومن النصوص ما يدل على أن منهم من كان ينكر بعض الآيات ، ومنهم من كان معرضاً عنها وهاجراً لها . ولا يخفى عليك أن من الناس اليوم من هو أدهى وأمر مما كان عليه أهل الجاهلية فى هذا الباب

اختيارُ كتب الباطل ، ونبذ آيات الله

(التاسعة والثلاثون) : اشتراء كتب الباطل واختيارها عليها ، أى على الآيات . قال تعالى (البقرة ٩٩ ـ ١٠٣) : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنا إليكَ آياتٍ بَيِّناتٍ ، وما يَكْفُرُ بها إلاَّ الفاسِقون . أوَ كُلَّما عاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ منهم ، بَلْ أكثرُهمْ لا يُؤْمِنون . ولمَّا جاءهم رَسُولٌ مِنْ عندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لما معهم نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتوا الكِتابَ كِتابَ اللهِ وَراءَ ظُهورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمون . واتَّبَعوا ما تَتْلو الشَّياطِينُ على مُلْكِ سُلَيمان ـ إلى قوله ـ ويَتَعَلَّمونَ ما يَضُرُّهمْ ولا يَنْفَعُهمْ ، ولَقَدْ عَلِموا لَمَنِ اشْتَراهُ ما لهُ فى الآخِرَةِ مِنْ خَلاق ، ولَبِئْسَما شَرَوْا بهِ أنْفُسَهُمْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُون . ولو أنَّهُمْ آمَنوا واتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كانُوا يَعْلَمون ﴾ ومعنى قوله ﴿ ولقد علموا

لمن اشتراه ﴾ أى استبدل ما تتلو الشياطين بكتاب الله ﴿ ما له فى الآخرة من خَلاق ﴾ أى نصيب ﴿ ولبِئْسَما شروا به أنفسهم ﴾ أى والله لبئس شيئاً شروا به حظوظ أنفسهم ، أى باعوها أو شروها فى زعمهم ذلك الشراء ﴿ ولو أنهم آمنوا ﴾ أى بالرسول أو بما أنزل اليه من الآيات أو بالتوراة ﴿ واتقَوا ﴾ أى المعاصى التى حكيت عنهم ﴿ لمثوبةٌ من عند الله خيرٌ لو كانوا يعلمون ﴾ أى أن ثواب الله تعالى خير لهم . وبمعنى هذه الآية قوله تعالى (البقرة ٧٨ - ٧٩) : ﴿ ومِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمونَ الكِتاب إلاّ أمانِيَّ وإنْ هُمْ إلاّ يَظنُّون فويلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبونَ الكِتابَ بِأيْدِيهِمْ ثمَّ يقولونَ هٰذا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثمناً قَلِيلا ، فوَيلٌ لهم مِمّا كَتَبَتْ أيدِيهِمْ وَوَيْلٌ لهم مِمّا يَكْسِبُون ﴾ وهذه الآية نزلت فى أحبار اليهود الذين خافوا أن تذهب رياستهم بابقاء صفة النبى ﷺ على حالها فغيروها

القَدْحُ فى حِكْمة الله تعالى

(الأربعون) : القدح فى حكمته تعالى . أقول : من خصال الجاهلية القدح فى حكمته تعالى وأنه ليس بحكيم فى خلقه ، بمعنى أنه سبحانه يخلق ما لا حكمة له فيه ، ويأمر وينهى بما لا حكمة فيه . وقد حكى الله تعالى ذلك بقوله فى سورة ص (٢٧) : ﴿ وما خَلَقْنا

السَّماواتِ والأرْضَ وما بينَهما باطلا ، ذٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كفروا ، فويلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النّار ﴾ وقال سبحانه فى سورة المؤمنين (١١٥ ـ ١١٦) : ﴿ أفَحَسِبْتُمْ أنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وأنَّكُمْ إلينا لا تُرْجَعُون . فتعالىٰ اللهُ المَلِكُ الحقّ ﴾ وفى سورة الدخان (٣٨-٣٩) ﴿ وما خَلَقْنا السَّماواتِ والأرْضَ وما بَيْنَهُما لاعِبين . ما خَلَقْناهُما إلاّ بالْحَقّ ولٰكِنَّ أكْثَرَهُم لا يَعْلَمون ﴾ وفى سورة الانبياء (١٦-١٧) ﴿ وما خَلَقْنا السَّماءَ والأرْضَ وما بَيْنَهُما لاعِبين . لو أرَدْنا أنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْناه من لدنّا إنْ كُنَّا فاعِلين ﴾ وفى سورة الحجر (٨٥) : ﴿ وما خَلَقْنا السَّماواتِ والأرْضَ وما بَيْنَهُما إلاّ بِالْحَقّ ، وإنَّ الساعةَ لَآتِيَةٌ ، فاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيل ﴾ الى غير ذلك من الآيات الناصة على أن الله تعالى لم يخلق شيئاً من غير حكمة ولا علة ، على خلاف ما يعتقده أهل الباطل من الجاهليين ، ومن نحا نحوهم من هذه الأمة ممن نفى الحكمة عن أفعاله سبحانه وتعالى . وهذه مسألة طويلة الذيل قد كثر فيها الخصام بين فرق المسلمين ، والحق ما كان عليه السلف من إثبات الحكمة والتعليل . وقد أطنب الكلام عليها الحافظ ابن القيم فى كتابه (شفاء العليل ، فى مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل) وعقد باباً مفصلا فى طرق إثبات حكمة الرب تعالى فى خلقه وأمره ، وإثبات

الغايات المطلوبة والعواقب الحميدة التى فعل وأمر لأجلها . ومن جملة ما قال فى هذا الباب : إنه سبحانه وتعالى أنكر على من زعم أنه لم يخلق الخلق لغاية ولا لحكمة ، كقوله ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً ﴾ وقوله ﴿ أيحسبُ الانسان أن يترك سُدًى ﴾ وقوله ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ، ما خلقناهما إلا بالحق ﴾ والحق هو الحكم والغايات المحمودة التى لأجلها خلق ذلك كله ، وهو أنواع كثيرة : منها أن يعرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله وآياته . ومنها أن يحب ويعبد ويشكر ويذكر ويطاع . ومنها أن يأمر وينهى ويشرع الشرائع . ومنها أن يدبر الأمر ويبرم القضاء ويتصرف فى المملكة بأنواع التصرفات . ومنها أن يثيب ويعاقب ، فيجازى المحسن باحسانه والمسيء باساءته ، فيكون أثر عدله وفضله موجوداً مشاهداً ، فيحمد على ذلك ويشكر . ومنها أن يعلم خلقه أنه لا إله غيره ولا ربَّ سواه . ومنها أن يصدّق الصادق فيكرمه ويكذب الكاذب فيهينه . ومنها ظهور آثار أسمائه وصفاته على تنوّعها وكثرتها فى الوجود الذهنى والخارجى ، فيعلم عباده ذلك علماً مطابقاً لما فى الواقع . ومنها شهادة مخلوقاته كلها بأنه وحده ربها وفاطرها ومليكها ، وأنه وحده إلٓهها ومعبودها . ومنها ظهور أثر كماله المقدس ، فان الخلق والصنع لازم كماله فانه حى قدير ، ومن كان كذلك لم يكن إلا فاعلا مختاراً . ومنها أن

يظهر أثر حكمته فى المخلوقات بوضع كل منها فى موضعه الذى يليق به ، ومجيئه على الوجه الذى تشهد العقول والفطر بحسنه ، فتشهد حكمته الباهرة. ومنها أنه سبحانه يحبُّ أن يجود وينعم ويعفو ويغفر ويسامح، ولا بد من لوازم ذلك خلقاً وشرعا . ومنها أنه يحبُّ أن يثنى عليه ويمدح ويمجد ويسبح ويعظم . ومنها كثرة شواهد ربوبيته ووحدانيته وإلٰهيته . الى غير ذلك من الحكم التى تضمنها الخلق . فخلق مخلوقاته بسبب الحق ، ولأجل الحق ، وخلقها ملتبس بالحق ، وهو فى نفسه حق : فمصدره حق ، وغايته حق ، وهو يتضمن الحق . وقد أثنى على عباده المؤمنين حيث نزهوه عن ايجاد الخلق لا لشيء ولا لغاية فقال تعالى (آل عمران ١٩١) : ﴿ إنَّ فى خَلْقِ السَّماواتِ والأرْضِ واخْتِلافِ الليلِ والنهارِ لَآياتٍ لِأُولى الألْباب . الَّذينَ يَذْكُرون اللهَ قِياماً وقُعودا وعلىٰ جُنُوبِهم ويَتَفَكَّرونَ فى خَلْقِ السَّماواتِ والأرْض رَبَّنا ما خَلَقْتَ هٰذا باطِلاً سُبْحَانك ﴾ وأخبر أن هذا ظن أعدائه لا ظن أوليائه فقال ﴿ وما خَلَقْنا السماءَ والأرْضَ وما بَيْنَهُما باطِلاً ، ذٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَروا ﴾ . وكيف يتوهم أنه عرفه من يقول انه لم يخلق لحكمة مطلوبة له ، ولا أمر لحكمة ، ولا نهى لحكمة ، وإنما يصدر الخلق والأمر عن مشيئة وقدرة محضة لا لحكمة ولا لغاية مقصودة .

وهل هذا إلاّ إنـكار لحقيقة حمده ، بل الخلق والأمر إنما قام بالحـكم والغايات ، فهما مظهران لحمده وحكمته ، فانـكار الحـكمة إنـكار لحقيقة خلقه وأمره ، فان الذى أثبته المنـكرون من ذلك ينزَّه عنـه الربّ ويتعالى عن نسبته اليه ، فانهم أثبتوا خلقاً وأمراً لا رحمـة فيه ولا مصلحة ولا حكمة ، بل يجوز عندهم أو يقع أن يأمر بما لا مصلحة المـكلف فيه البتة ، وينهى عما فيه مصلحة ، والجميع بالنسبة اليه سواء . ويجوز عندهم أن يأمر بكل ما نهى عنه ، وينهى عن جميع ما أمر به ، ولا فرق بين هذا وهذا إلاّ بمجرد الأمر والنهى . ويجوز عندهم أن يعذب من لم يعصه طرفة عين ، ويثيب من عصاه بل أفنى عمره فى الـكفر به والشرك والظلم والفجور ، فلا سبيل الى أن يعرف خلاف ذلك منه إلا بخبر الرسول وإلا فهو جائز عليه . وهذا من أقبح الظن وأسوئه بالرب سبحانه ، وتنزيهه عنه كتنزيهه عن الظلم والجور ، بل هذا هو عين الظلم الذى يتعالى الله عنه . والعجب العجاب أن كثيراً من أرباب هذا المذهب ينزهونه عما وصف به نفسه من صفات الـكمال ونعوت الجلال ، ويزعمون أن إثباتها تجسيم وتشبيه ، ولا ينزهونه عن هذا الظلم والجور ويزعمون أنه عدل وحق ، وأن التوحيد عندهم لا يتم إلا به ، كما لا يتم إلا بانـكار استوائه على عرشه وعلوه فوق سماواته وتـكلمه وتـكليمه وصفات كماله ، فلا يتم التوحيد عند هذه الطائفة

إلا بهذا النفي وذلك الإثبات والله ولي التوفيق . انتهى المقصود من نقله ، وتمام الكلام في هذا الباب من ذلك الكتاب[1] . واليه سبحانه المآب

الكفرُ بالملائكة والرسل ، والتفريقُ بينهم

(الحادية والاربعون) : الكفر بالملائكة والرسل والتفريق بينهم . قال تعالى (البقرة ٨٧-٩٩) : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسىٰ الكِتابَ وقَفَّينا مِنْ بَعْدِهِ بالرُّسُلِ وآتَيْنا عِيسىٰ بْنَ مَرْيَمَ البَيِّناتِ وأَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، أَفَكُلَّما جاءَكُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوىٰ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وفَرِيقاً تَقْتُلون . وقالوا قُلُوبُنا غُلْفٌ ، بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلا مّا يُؤْمِنون . ولمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وكانوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلىٰ الَّذِينَ كَفَرُوا فلمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ، فَلَعْنَةُ اللهِ عَلىٰ الكافِرِين . بِئْسَما اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُروا بِما أَنْزَلَ اللهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلىٰ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ فَباءُوا بِغَضَبٍ عَلىٰ غَضَبٍ ولِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِين . وإذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِما أَنْزَلَ اللهُ قالوا نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا ويَكْفُرونَ بِما وَراءَهُ وهُوَ الحَقُّ مُصَدِّقاً لِما مَعَهُمْ

(١) وهو (شفاء العليل) لابن القيم رحمه الله

قلْ فَلِمَ تقتُلونَ أنْبياءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إنْ كُنتُمْ مُؤْمِنين ـ الى أن قال ـ قُلْ مَنْ كانَ عَدُوّاً لِجبْريلَ فإنَّهُ نَزَّلَهُ علىٰ قَلْبِكَ بإذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وهُدًى و بُشْرىٰ لِلْمُؤْمِنين . مَنْ كانَ عَدُوّاً للهِ ومَلائكتِه ورُسُلِهِ و جِبْرِيلَ ومِيكالَ فانَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكافِرين . ولَقَدْ أنْزَلْنا إلَيْكَ آياتٍ بَيِّناتٍ وما يَكْفُرُ بِها إلاّ الفاسِقُون ﴾ فقد تبين من هذه الآيات أن بعض الكتابيين كانوا يكفرون بالملائكة والرسل ، و يفرقون بينهم ، أى يؤمنون ببعض و يكفرون ببعض ، وهم طائفة من جاهلية اليهود . ولهذا أمرنا الله تعالى بالإيمان بهم وعدم التفرقة بينهم فقال (البقرة ٢٨٥) : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إليهِ مِنْ رَبِّهِ والمؤمِنُون كُلٌّ آمَنَ باللهِ ومَلائكتِه وكُتبه ورُسُلِه لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ، و قالوا سَمِعْنا وأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا و إليكَ المَصِير ﴾

الغُلُوُّ فى الأنبياء والرُّسل

(الثانية والاربعون) : الغلوُّ فى الأنبياء والرسل عليهم السلام .

قال تعالى فى سورة النساء (١٧١) : ﴿ يا أهْلَ الكِتابِ لا تَغلُوا فى دِينِكُمْ ولا تَقُولُوا على اللهِ إلاّ الحَقَّ ، إنّما المَسِيحُ عِيسىٰ بنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ و كَلِمَتُهُ ألْقاها إلىٰ مَرْيَمَ ورُوحٌ منه ، فآمِنُوا باللهِ ورُسُلِهِ ،

ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد ، سبحانه أن يكون له ولد ﴾ والغلوّ فى المخلوق أعظم سبب لعبادة الاصنام والصالحين ، كما كان فى قوم نوح من عبادة نَسْرٍ وسُواعَ ويَغُوثَ ونحوهم ، وكما كان من عبادة النصارى للمسيح عليه السلام ، ومثل ذلك القول على الله بغير الحق

الجِدالُ بغير علم

(الثالثة والاربعون) : الجدال بغير العلم كما ترى كثيراً من أهل الجهل يجادلون أهل العلم عند نهيهم عما ألفوه من البدع والضلالات . وهى صفة جاهلية نهانا الله تعالى عن التخلق بها . قال تعالى فى سورة آل عمران (٦٥-٦٦) : ﴿ يا أهلَ الكِتابِ لِمَ تُحاجُّونَ فى إبراهيمَ وما أُنْزِلَتِ التَّوْراةُ والإنْجِيلُ إلاّ مِنْ بَعْدِهِ ، أفلا تَعْقِلون . ها أنتمْ هٰؤُلاءِ حاجَجْتُمْ فيما لكم بِهِ عِلْمٌ فلِمَ تُحاجُّونَ فِيما ليسَ لكُمْ بِهِ عِلْمٌ ، واللهُ يَعْلَمُ وأَنْتُمْ لا تَعْلَمون ﴾ أخرج ابن اسحق وابن جرير عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ ، فتنازعوا عنده ، فقالت الأحبار : ما كان إبراهيم إلا يهودياً ، وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانياً ،

فانزل الله فيهم هذه الآية المنادية على جهلهم وعنادهم ، كما لا يخفى على من راجع التفسير

الكلامُ فى الدِّين بلا عِلم

قال الشيخ : (الرابعة والاربعون) الكلام فى الدين بلا علم .

أقول : أجمل الشيخُ رحمه الله تعالى الكلامَ فى هذه المسألة كل الاجمال كما فعل مثل ذلك فى كثير من المسائل ، وما أحقَّها بالتفصيل . وذلك أن أهل الجاهلية من العرب وغيرهم من الكتابيين شرعوا فى الدين ما لم يأذن به الله ، أما العرب فقد كان الكثير منهم على دين إبراهيم واسماعيل عليهما السلام ، إلى أن ظهر فيهم الُخزاعىّ[1] فغيّر و بدّل وابتدع بدعاً كثيرة وأغرى العرب على عبادة الأصنام و بَحَرَ البَحِيرَةَ وَحَمىٰ الحام واستقسَمَ بالأزْلام الى غير ذلك مما فصّلناه فى غير هذا الموضع . وان شئت أن تعرف جهل العرب وما ابتدعوه فاقرأ سورة الانعام فان فيها كثيراً من ضلالاتهم ومبتدعاتهم . وأما الجاهليون من اليهود والنصارى فقد اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم ، وذلك أن أحبارهم ورهبانهم ابتدعوا لهم فى الدين

---

(١) هو عمرو بن لحى وكان الحجازيون يتخذونه رباً فى امتثال أمره وطاعته والانتهاء عما ينهى عنه

بدعاً وحلّلوا وحرّموا ما اشتهته أنفسهم ، فقبلوا ذلك منهم وأطاعوهم عليه ، مع أن الدين إنما يكون بتشريع الله ووحيه الى أنبيائه ورسله عليهم السلام ، ولا يكون بآراء الرجال وبحسب أهوائهم ، فكل ما لا دليل عليه من كتاب ولا سنة مردود على صاحبه . وقد ذم الله تعالى اليهود على مثل ذلك فقال عز اسمه فى سورة آل عمران (٧٨) : ﴿ وإنَّ منهم لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بالكِتابِ لِتَحْسَبُوه مِنَ الكِتابِ وما هُوَ مِنَ الكِتابِ ويَقُولونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وما هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ ويَقُولونَ عَلَىٰ اللهِ الكَذِبَ وهُمْ يَعْلَمون ﴾ فمن أوّلَ نصوص الكتاب والسنة على حسب شهواته وبمقتضى هواه فهو أيضاً من قبيل الذين يلوون ألسنتهم بالكتاب . وأنت تعلم ما اشتمل عليه اليوم كثير من كتب الشريعة من الآراء التى ليس لها مستند من دلائل الشريعة . فالى الله المشتكىٰ من صَوْلة الباطل وخمول الحق

الكفرُ باليوم الآخر

(الخامسة والأربعون) : الكفر باليوم الآخر ، والتكذيب بلقاء الله ، وبعثِ الأرواح ، وببعض ما ذكرته الرسل من صفات الجنة والنار . قال تعالى فى سورة الكهف (١٠٤ ـ ١٠٥) : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فى الحياةِ الدُّنيا

وهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعا . أُولٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ولِقَائِه ﴾ الآية . وقد مرّ الـكلام عليها قريباً . وقال تعالى فى سورة النحل (٣٨-٣٩) : ﴿ وأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ ، بَلىٰ وَعْداً عَلَيهِ حَقّاً ، ولٰـكِنَّ أَكْثَرَ النــاسِ لا يَعْلَمون . لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذى يَخْتَلِفُونَ فيهِ ولِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كانُوا كاذِبين ﴾ الى غير ذلك من النصوص الواردة فى ذلك كله . ولقوم عصرِنا من هذا الاعتقاد الجاهلى حظ وافر ونصيب كامل ومن يضلل الله فلا هادى له ، ويذرهم فى طغيانهم يعمهون . نسأله تعالى التوفيق للهداية

التـكذيبُ بآية ﴿ مالِكِ يوْمِ الدِّين ﴾

(**السادسة والأربعون**) : التـكذيب بقوله تعالى ﴿ مالِكِ يوْمِ الدِّين ﴾ وهو اليوم الذى يدين الله تعالى العباد فيه بأعمالهم ، فيثيبهم على الخيرات ، ويعاقبهم على المعاصى والسيئات . والتـكذيب بهذا اليوم متفرِّع على إنـكار البعث والحساب والجنة والنار

التـكذيبُ بآية ﴿ لا بَيْعٌ فيهِ ولا خُلَّةٌ ولا شَفاعةَ ﴾

(**السابعة والأربعون**) : التـكذيب بقوله تعالى (البقرة ٢٥٤)

﴿لَا بَيْعٌ فيهِ ولا خُلةٌ ولا شَفاعة﴾ من قوله سبحانه ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنوا أنفِقوا مما رَزَقْناكم مِنْ قَبلِ أنْ يَأْتِيَ يومٌ لا بَيْعٌ فيه ولا خُلَّةٌ ولا شَفاعة ، والـكافِرُونَ همُ الظالمون﴾ . والخلة المودة والصداقة . ومعنى ولا شفاعة أي لا أحد يشفع لأحد إلا من بعد أن يأذن الرحمن لمن يشاء ويرضى . وأراد بذلك يوم القيامة . والمراد من وصفه بما ذكر الإشارة الى أنه لا قدرة لأحد فيه على تحصيل ما ينتفع به بوجه من الوجوه ، لأن من فى ذمته حق مثلا إما أن يأخذ بالبيع ما يؤديه به ، وإما أن يعينه أصدقاؤه ، وإما ان يلتجئ إلى من يشفع له فى حقه ، والـكل منتف . ولا مستعان إلا بالله عز وجل

الخَطَأُ فى فَهْم معنى الشَّفاعة

(الثامنة والأربعون) : التكذيب بقوله تعالى فى سورة الزخرف (٨٦) : ﴿ولا يَملِكُ الَّذينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونهِ الشَّفاعةَ إلاّ مَنْ شَهِدَ بالحَقِّ وهم يَعْلَمُون﴾ . قوله « ولا يملك الذين يدعون » أي ولا يملك آلهتهم الذين يدعونهم من دونه الشفاعة ، كما زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله عز وجل « إلا من شهد بالحق » الذى هو التوحيد « وهم يعلمون » أي يعلمونه . والمراد بهم الملائـكة وعيسى وعزير وأضرابهم . وأنت ترى الناس اليوم عاكفين على أصنام لهم يدعونهم من دون الله ،

وعذرهم عند توبيخهم أن هؤلاء شفعاؤهم . تعالى الله عما يشركون

قَتْلُ أوْلياء الله

(التاسعة والاربعون) : قتل أولياء الله ، وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس ، قال تعالى فى سورة البقرة (٦١) : ﴿ وضُرِبَتْ عليهمُ الذِّلَّةُ والمَسْكَنَةُ وباءوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ، ذٰلِكَ بأنَّهُمْ كانوا يَكْفُرونَ بآياتِ اللهِ ويَقْتُلونَ النَّبِيِّينَ بغيْرِ الحقّ ، ذٰلِكَ بمـا عَصَوْا وكانوا يَعْتَدُون ﴾ وقال فى سورة آل عمران (١٨٣) : ﴿ قُلْ قَدْ جاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْـلى بِالبَيِّناتِ وبالَّذى قُلْتُمْ ، فلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إنْ كُنتمْ صادِقِين ﴾ الى آيات أخر فى هذا المعنى صرحت بما لاقاه الأنبياء والرسل عليهم السلام وأتباعهم المخلصون ودعاة الحق[1] وبما كابدوه من أعداء الله والجهلة الطغاة مما تنهد له الصياصى وتبيض منه النواصى

هؤلاء أكابر الأمة المحمدية وعلماؤها الأعلام قد صادفوا عنـد دعوتهم الى الحق والمحافظة عليه ما يسودُّ منه وجه القرطاس ، وتشيب منه لمم المداد . والأنبياء صلوات الله عليهم وأتباعهم المؤمنون وإن كانوا

---

(١) من ذلك ان الشيخ المصنف لاقى من أبناء زمانه كبيرهم وصغيرهم لما دعاهم الى الله تعالى والتوحيد الذى جاءت به الرسل ما تنهد له الصياصى وتشيب له النواصى كما لا يخفى على من طالع سيرته الطاهرة ، تغمده الله برحمته ورضوانه

يُبتلون فى أول الأمر فالعاقبة لهم ، كما قال تعالى لما قص قصة نوح (هود ٤٩) : ﴿ تِلْكَ مِنْ أنباءِ الغَيْبِ نُوحِيها اليكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أنتَ ولاقَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هٰذا ، فاصْبِرْ ، إنَّ العاقِبَةَ لِلْمُتَّقِين ﴾ وفى الحديث المتفق على صحته لما أرسل النبى ﷺ رسولا الى ملك الروم ، فطلب من يخبره بسيرته ، وكان المشركون حينئذ أعداءه لم يكونوا آمنوا به . فقال : كيف الحرب بينكم و بينه ؟ قالوا : الحرب بيننا و بينه سجال ، يدال علينا المرة وندال عليه الأخرى . فقال : كذلك الرسل تبتلى وتكون لها العاقبة . فانه كان يوم بدر نصر الله المؤمنين ، ثم يوم أحد ابتلى المؤمنون ، ثم لم ينصر الكفار بعدها حتى أظهر الله تعالى الاسلام . فان قيل : ففى الأنبياء من قد قتل كما أخبر الله تعالى فى الآيات السابقة أن بنى اسرائيل يقتلون النبيين بغير الحق ، وفى أهل الفجور من يؤتيه الله ملكا وسلطانا ويسلطه على المتدينين كما سلط بخت نصر على بنى إسرائيل ، وكما سلط كفار المشركين وأهل الكتاب أحيانا على المسلمين . قيل : أما من قتل من الأنبياء فهم كمن يقتل من المؤمنين فى الجهاد شهيداً ، قال تعالى (آل عمران ١٤٦ ـ ١٤٨) : ﴿ وكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيّ قاتَلَ معهُ رِبِّيُّونَ كثيرٌ فما وَهَنُوا لِما أصابَهُمْ فى سبيلِ اللهِ وما ضَعُفُوا وما استَكانوا ، واللهُ يُحِبُّ الصابِرِين . وما كانَ قَوْلَهُم إلاّ أنْ قالوا

رَبَّنا اغفِرْ لنا ذُنُوبَنا وإسْرافَنا فى أمْرِنا وثَبِّتْ أقْدامَنا وانْصُرْنا على القَوْمِ الكافِرين . فآتاهُمُ اللهُ ثَوابَ الدُّنْيا وحُسْنَ ثَوابِ الآخِرَةِ ، واللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِين ﴾ ومعلوم أن من قتل من المؤمنين شهيداً فى القتال كان حاله أكمل من حال من يموت حتف أنفه ، قال تعالى (آل عمران ١٦٩) : ﴿ ولا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فى سَبِيلِ اللهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُون ﴾ ولهذا قال تعالى (التوبة ٥٢) : ﴿ قُلْ هل تَرَبَّصُونَ بِنا إلاَّ إحْدَى الحُسْنَيَيْن ﴾ أى إما النصر والظفر ، وإما الشهادة والجنة . ثم إن الدين الذى قاتل عليه الشهداء ينتصر ويظهر ، فيكون لطائفته السعادة فى الدنيا والآخرة : من قُتل منهم كان شهيداً ، ومن عاش منهم كان منصوراً سعيداً . وهذا غاية ما يكون من النصر ، إذ كان الموت لا بد منه ، فالموت على الوجه الذى تحصل به سعادة الدنيا والآخرة أكمل ، بخلاف من يهلك هو وطائفته فلا يفوز لا هو ولا هم بمطلوبهم لا فى الدنيا ولا فى الآخرة . والشهداء من المؤمنين قاتلوا باختيارهم وفعلوا الأسباب التى بها قتلوا ، كالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فهم اختاروا هذا الموت : إما أنهم قصدوا الشهادة ، وإما أنهم قصدوا ما به يصيرون شهداء عالمين بأن لهم السعادة فى الآخرة وفى الدنيا بانتصار طائفتهم وببقاء لسان

الصدق لهم ثناء ودعاء . بخلاف من هلك من الكفار ، فانهم هلكوا بغير اختيارهم هلاكا لا يرجون معه سعادة الآخرة ، ولم يحصل لهم ولا لطائفتهم شيء من سعادة الدنيا ، بل أتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ، وقيل فيهم (الدخان ٢٥ ـ ٢٩) :
﴿ كَمْ تَرَكُوا من جَنّاتٍ وعُيون ، وزُرُوعٍ وَمقامٍ كَرِيم ، ونَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِين . كَذٰلِكَ ، وأَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِين ، فما بَكَتْ عليهمُ السماءُ والأرضُ وما كانوا مُنْظَرِين ﴾ وقد أخبر سبحانه أن كثيراً من الأنبياء قتل معه ربيون كثير ، أى ألوف كثيرة ، وأنهم ما ضعفوا ولا استكانوا للذلك ، بل استغفروا من ذنوبهم التى كانت سبب ظهور العدوّ ، وأن الله تعالى آتاهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة . فاذا كان هذا قتل المؤمنين فما الظن بقتل الأنبياء ، ففيه لهم ولأتباعهم من سعادة الدنيا والآخرة ما هو من أعظم الفلاح . وظهور الكفار على المؤمنين أحياناً هو بسبب ذنوب المسلمين كيوم أحُد ، فان تابوا انتصروا على الكفار وكانت العاقبة لهم ، كما قد جرى مثل هذا المسلمين فى عامة ملاحمهم مع الكفار ، وهذا من آيات النبوة وأعلامها ودلائلها ، فان النبى ﷺ اذا قاموا بعهوده ووصاياه نصرهم الله وأظهرهم على المخالفين له ، فاذا ضيعوا عهوده ظهر أولئك عليهم ، فمدار

النصر والظهور مع متابعة النبي ﷺ وجوداً وعدماً من غير سبب يزاحم ذلك ، ودوران الحكم مع الوصف وجوداً وعدماً من غير مزاحمة وصف آخر يوجب العلم بأن المدار علة الدائر ، وقولنا « من غير وصف آخر » يزيل النقوض الواردة ، فهذا الاستقراء والتتبع يبين أن نصر الله واظهاره هو بسبب اتباع النبي ، وأنه سبحانه يريد اعلاء كلمته ونصره ونصر أتباعه على من خالفه ، وأن يجعل لهم السعادة ولمن خالفهم الشقاء ، وهذا يوجب العلم بنبوته ، وأن من اتبعه كان سعيداً ومن خالفه كان شقياً . ومن هذا ظهور بخت نصر على بنى إسرائيل ، فانه من دلائل نبوة موسى ، اذ كان ظهور بخت نصر إنما كان لما غيروا عهود موسى وتركوا اتباعه فعوقبوا بذلك ، وكانوا - اذ كانوا متبعين لعهود موسى - منصورين مؤيدين ، كما كانوا فى زمن داود وسليمان وغيرهما . قال تعالى (الاسراء ٤ - ٨) : ﴿ وَقَضَيْنا إلى بَنى إِسْرائيلَ فى الكِتابِ لَتُفْسِدُنَّ فى الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ولَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كبيراً . فإذا جاءَ وعدُ أُولاهُما بَعَثْنا عَليكم عِباداً لَنا أُولى بَأْسٍ شَديدٍ فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ ، وكانَ وَعْداً مَفْعولا . ثمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وأَمْدَدْناكُمْ بأَمْوالٍ وبَنِينَ وجَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفيراً . إن أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وإنْ أَسَأْتُمْ فَلَها ، فاذا جاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءوا

وُجُوهَكُمْ وليَدْخُلوا المسْجِدَ كما دَخَلُوه أوَّلَ مَرَّة وليُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيرا . عَسَى رَبُّكُمْ أنْ يَرْحَمَكُمْ و إنْ عُدْتُمْ عُدْنا ﴾ فكان ظهور بنى إسرائيل على عدوّهم تارة ، وظهور عدوهم عليهم تارة ، من دلائل نبوة موسى ﷺ وآياته . وكذلك ظهور أمة محمد ﷺ على عدوّهم تارة ، وظهور عدوهم عليهم تارة ، هو من دلائل رسالة محمد ﷺ وأعلام نبوّته ، وكان نصرُ الله لموسى وقومه على عدوهم فى حياته و بعد موته كما جرى لهم مع يوشع وغيره من دلائل نبوة موسى ، وكذلك انتصار المؤمنين مع محمد ﷺ فى حياته ، و بعد مماته مع خلفائه ، من أعلام نبوته و دلائلها ، وهذا بخلاف الكفار الذين ينتصرون على أهل الكتاب أحياناً،فإن أُولئك لا يكون مطاعهم منتسباً الى نبي ، ولا يقاتلون أتباع الانبياء على دين ، ولا يطلبون من أولئك أن يتبعوهم على دينهم ، بل قد يصرحون بأنا إنما نصرنا عليكم بذنوبكم ، وأن لو اتبعتم دينكم لم ننصر عليكم . وأيضاً فلا عاقبة لهم ، بل الله يهلك الظالم بالظالم ثم يهلك الظالمين جميعاً ، ولا قتيلهم يطلب بقتله سعادة بعد الموت ، ولا يختارون القتل ليسعدوا بعد الموت . فهذا وأمثاله مما يظهر الفرق بين انتصار الانبياء وأتباعهم و بين ظهور بعض الكفار على المؤمنين أو ظهور بعضهم على بعض ، ويبين أن ظهور محمد ﷺ وأمته على

أهل الكتاب اليهود والنصارى هو من جنس ظهورهم على المشركين عباد الأوثان ، وذلك من أعلام نبوته ودلائل رسالته ، ليس هو كظهور بخت نصر على بنى إسرائيل وظهور الكفار على المسلمين .
وهذه الآية مما أخبر به موسى وبين أن الكذاب المدّعى للنبوة لا يتم أمره وانما يتم أمر الصادق ، فان من أهل الكتاب من يقول : محمد وأمته سلطوا علينا بذنوبنا مع صحة ديننا الذى نحن عليه ، كما سلط بخت نصر وغيره من الملوك . وهذا قياس فاسد ، فان بخت نصر لم يدّع نبوة ولا قاتل على دين ولا طلب من بنى اسرائيل ان ينتقلوا عن شريعة موسى الى شريعته ، فلم يكن فى ظهوره إتمام لما ادعاه من النبوة ودعا اليه من الدين ، بل كان بمنزلة المحاربين قطاع الطريق اذا ظهروا على القوافل . بخلاف من ادعى نبوة ودينا دعا اليه ووعد أهله بسعادة الدنيا والآخرة وتوعد مخالفيه بشقاوةا لدنيا والآخرة ثم نصره الله وأظهره وأتم دينه وأعلى كلمته وجعل له العاقبة وأذل مخالفيه ، فان هذا من جنس خرق العادات المقترن بدعوى النبوة فانه دليل عليها ، وذاك من جنس خرق العادات المقترن بدعوى النبوة فانه ليس دليلا عليها ، وقد تغرق فى البحر أمم كثيرة فلا يكون ذلك دليلا على نبوة نبى ، بخلاف غرق فرعون وقومه فانه كان آية بينة لموسى ، وهذا موافق لما أخبر به موسى عليه الصلاة والسلام من أن الكذاب لا يتم أمره ،

وذلك بأن الله حكيم لا يليق به تأييد الكذاب على كذبه من غير أن يبين كذبه . ولهذا أعظم الفتن فتنة الدجال الكذاب لما اقترن بدعواه الالوهية بعض الخوارق كان معها ما يدل على كذبه من وجوه : منها دعواه الألوهية ، وهو أعور والله ليس باعور ، مكتوب بين عينيه كافر يقرأه كل مؤمن قارئ وغير قارئ ، والله تعالى لا يراه أحد حتى يموت . وقد ذكر النبي ﷺ هذه العلامات الثلاث فى الأحاديث الصحيحة ، فأما تأييد الكذاب ونصره وإظهار دعوته دائما فهذا لم يقع قط ، فمن يستدل على ما يفعله الرب سبحانه بالعادة والسنة فهذا هو الواقع على ذلك أيضاً بالحكمة ، فحكمته تناقض أن يفعل ذلك ، اذ الحكيم لا يفعل هذا ، وقد قال تعالى (الفتح ٢٢ ـ ٢٣) : ﴿ وَلَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبارَ ثم لا يَجِدُونَ وَلِيّاً ولا نَصِيرا . سُنَّةَ اللهِ التى قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلا ﴾ . فأخبر أن سنة الله التى لا تبديل لها نصر المؤمنين على الكافرين ، والايمان المستلزم لذلك يتضمن طاعة الله ورسوله . فاذا نقص الايمان بالمعاصى كان الأمر بحسبه كما جرى يوم أُحُد . وقال تعالى (فاطر ٤٢ـ ٤٣) : ﴿ وأَقْسَمُوا باللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَكُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ ، فلما جاءَهُمْ نَذِيرٌ ما زادَهُمْ إلاّ نفوراً ،

اسْتِكْباراً فى الأرْضِ ومَكْرَ السَّيِّء ولا يُحِيقُ المَكْرُ السَّيِّء إلاّ بأَهْلِهِ ، فَهَلْ يَنْظرُونَ إلاّ سُنَّةَ الأوَّلِينَ ، فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلا ، ولَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلا ﴾ . فأخبر أن الكفار لا ينظرون إلا سنة الأولين ، ولا يوجد لسنة الله تبديل ، لا تبدل بغيرها ولا تتحول ، فكيف النصر للكفار على المؤمنين الذين يستحقون هذا الاسم ؟ وكذلك قال فى المنافقين وهم الكفار فى الباطن دون الظاهر ومن فيه شعبة نفاق (الاحزاب ٦٠ ـ ٦٢) : ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ المُنافِقُونَ والَّذينَ فى قُلوبِهِمْ مَرَضٌ والمُرْجِفُونَ فى المَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجاوِرونَكَ فيها إلاّ قَليلا . مَلْعُونِينَ أيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وقُتِّلوا تَقْتِيلا . سُنَّةَ اللهِ الَّتى قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ ، ولَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلا ﴾ والسنة هى العادة ، فهذه عادة الله المعلومة ، فاذا نصر من ادعى النبوة وأتباعه على من خالفه إما ظاهراً وإما باطناً نصراً مستقراً فان ذلك دليل على أنه نبي صادق ، اذ كانت سنة الله وعادته نصر المؤمنين بالأنبياء الصادقين على الكافرين والمنافقين ، كما أن سنته تأييدهم بالآيات البينات وهذه منها ، ومن ادعى النبوة وهو كاذب فهو من أكفر الكفار وأظلم الظالمين ، قال تعالى (الانعام ٩٣) : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى على اللهِ كَذِباً أو قالَ أُوحِيَ إلَيَّ ولَمْ يُوحَ إليهِ شَيْء

ومَنْ قالَ سأُنزِلُ مثلَ ما أَنزَلَ الله ﴾ وقال تعالى (الزمر ٣٢) : ﴿ فمَنْ أظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ على اللهِ وكذَّبَ بالصِّدْقِ إذْ جاءَه ﴾ وقال تعالى (العنكبوت ٦٨) : ﴿ ومَنْ أظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى على اللهِ كَذِباً أو كَذَّبَ بالحقِّ لمّا جاءَه ﴾ وقال تعالى (الانعام ١٤٤) : ﴿ فَمنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى على اللهِ كَذِباً لِيُضِلَّ الناسَ بغَيرِ عِلْمٍ إنَّ اللهَ لا يَهْدِي القومَ الظالمين ﴾ ومن كان كذلك كان الله يمقته ويبغضه ويعاقبه ولا يدوم أمره ، بل هو كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح عن أبي هريرة قال « إن الله يملي للظالم ، فاذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ (هود ١٠٢) : ﴿ وكذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إذا أَخَذَ القُرَى وهيَ ظالِمَةٌ ، إنَّ أَخْذَهُ أَليمٌ شَديد ﴾ ، وقال أيضاً في الحديث الصحيح عن أبي موسى أنه قال : قال رسول الله ﷺ « مَثَلُ المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيِّؤُها الرياح ، تقيمها تارة وتميلها أخرى . ومَثَلُ المنافق كمثل شجرة الأرز لا تزال ثابتة على أصلها حتى يكون انجعافها مرة واحدة » . فالكاذب الفاجر وان عظمت دولته فلا بد من زوالها بالكلية وبقاء ذمه ولسان السوء له في العالم ، وهو يظهر سريعاً ويزول سريعاً ، كدولة الأَسْوَد العَنْسي ومُسَيلمة الكذّاب والحارث الدمشقي وبابك الخرَّمي ونحوهم . وأما الأنبياء فانهم يبتلون كثيراً ليمحَّصوا بالبلاء ، فان الله

تعالى إنما يمكن العبد اذا ابتلاه و يظهر أمره شيئاً فشيئاً كالزرع ، قال تعالى (الفتح ٢٩) : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ، والَّذينَ معـهُ أشِدّاء علىٰ الـكُفّارُ رُحَماء بينهمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغونَ فَضْلا من اللهِ ورِضْوانًا سِيما هُمْ فى وُجُوهِهِمْ مِنْ أثَرِ السُّجود ، ذٰلكَ مَثَلُهمْ فى التَّوْراة ومَثَلُهم فى الإنْجِيلِ كزَرْعٍ أخْرَجَ شَطْأَهُ (أى فراخـه) فآزَرَهُ (أى قوّاه) فاسْتَغْلَظَ فاسْتَوَى على سُوقِهِ يُعْجِبُ الزرّاعَ لِيَغيظَ بِهِمُ الـكُفّار ، وعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنوا وعَمِلوا الصالحاتِ مِنهُمْ مَغْفِرةً وأجْراً عَظِيما ﴾ . ولهذا كان أول من اتبعهم ضعفاء الناس باعتبار هذه الأمور وسنة الله فى أنبياء الله وأوليائه الصادقين وفى أعداء الله والمتنبئين الـكذابين مما يوجب الفرق بين النوعين و بين دلائل النبى الصادق ودلائل المتنبي الـكذاب ، وقد ذكر ابتلاء النبى والمؤمنين ثم كون العاقبة لهم فى غير موضع ، كقوله تعـالى (الانعام ٣٤) : ﴿ ولَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ من قَبْلِكَ فصَبَرُوا على ما كُذِّبُوا وأُوذُوا حتّٰى أتاهُمْ نَصْرُنا ، ولا مُبَدِّلَ لـكلماتِ الله ، ولَقَدْ جاءكَ من نَبَإِ المُرْسَلِين ﴾ وقال تعالى (البقرة ٢١٤) : ﴿ أمْ حَسِبْتُمْ أنْ تَدْخُلُوا الجَنَّـةَ ولمّا يَأْتِـكُمْ مَثَلُ الَّذين خَلَوْا مِنْ قَبْلِـكُم ، مَسَّتْهُمُ البَأْساء والضَّرّاء وزُلْزِلُوا حتّٰى يَقُولَ الرَّسُولُ والذينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتىٰ نَصْرُ اللهِ ، ألا إنَّ

نَصْرَ اللهِ قَرِيب﴾ وقال تعالى (يوسف ١٠٩-١١١) : ﴿ وما أرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إلاّ رِجالاً نُوحِي إليهِمْ مِنْ أهْلِ القُرىٰ ، أفَلَمْ يَسِيرُوا فى الأرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ولَدارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذينَ اتَّقَوْا أفلا تَعْقِلون . حَتّىٰ إذا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وظَنُّوا أنَّهمْ قد كُذِبوا جاءَهُمْ نَصْرُنا فنُجِّيَ مَنْ نَشاء ولا يُرَدُّ بأسُنا عَنِ القَوْمِ المُجْرِمِين . لَقَدْ كانَ فى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولى الألْبابِ ، ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرىٰ ولٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وتَفْصِيلَ كُلِّ شيء وهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُون ﴾

والمقصود أن ايذاء القائمين بالحق والناصرين له من سنن أهل الجاهلية ، وكثير من أهل عصرنا على ذلك . والله المستعان

الايمانُ بِالجِبْتِ والطاغُوت

(الخمسون) : الايمان بالجبت و الطاغوت و تفضيل المشركين على المسلمين . قال تعالى فى سورة النساء (٥١) : ﴿ ألَمْ تَرَ إلى الَّذينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الكِتابِ يُؤْمِنُون بالجِبْتِ والطاغُوتِ وَيقولونَ لِلَّذينَ كَفَرُوا هؤُلاءِ أهْدَى مِنَ الَّذينَ آمَنُوا سَبِيلا ﴾ هذه الآية نزلت فى حُيَيّ بن أخْطَب وكَعْب بن الأشرف فى جمع من يهود ،

وذلك أنهم خرجوا الى مكة بعد وقعة أُحُد ليحالفوا قريشاً على رسول الله ﷺ وينقضوا العهد الذى بينهم وبين رسول الله ﷺ ، فنزل كعب على أبى سفيان فأحسن مثواه ، ونزلت اليهود فى دور قريش ، فقال أهل مكة : أنتم أهل كتاب ، ومحمد ﷺ صاحب كتاب ، فلا يؤمن هذا أن يكون مكراً منكم ، فان أردت أن نخرج معك فاسجد لهذين الصنمين وآمن بهما ، ففعل . ثم قال كعب : يا أهل مكة ، ليجىء منكم ثلاثون ومنا ثلاثون فنلزق أكبادنا بالكعبة فنعاهد رب البيت لنجهدن على قتال محمد ، ففعلوا ذلك . فلما فرغوا قال أبو سفيان لكعب : إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ، ونحن أميون لا نعلم ، فأيُّنا أهدى طريقاً وأقرب الى الحق ، نحن أم محمد ؟ قال كعب : اعرضوا علىَّ دينكم . فقال أبو سفيان : نحن ننحر للحجيج الكوماء ، ونسقيهم اللبن ، ونقرى الضيف ، ونفكُّ العانى ، ونصل الرحم ، ونعمر بيت ربنا ونطوف به ، ونحن أهل الحرم . ومحمد فارق دينَ آبائه ، وقطع الرحم . وديننا القديم ، ودين محمد الحديث . فقال كعب : أنتم والله أهدى سبيلا مما عليه محمد . فأنزل الله فى ذلك الآيات . والجبت فى الأصل اسم صنم ، فاستعمل فى كل معبود غير الله . والطاغوت يطلق على كل باطل من معبود أو غيره . ومعنى الايمان بهما إما التصديق بأنهما آلهة وإشراكهما بالعبادة مع الله تعالى ، وإما طاعتهما وموافقتهما

على ما هما عليه من الباطل ، وإما القدر المشترك بين المعنيين كالتعظيم مثلا . والمتبادر المعنى الاول ، أى انهم يصدقون بألوهية هذين الباطلين ويشركونهما فى العبادة مع الإآه الحق ويسجدون لهما

لَبْسُ الحقِّ بالباطل

(الحادية والخمسون) : لبس الحق بالباطل وكتمانه ، قال تعالى فى سورة آل عمران (٧١) : ﴿ يا أَهْلَ الكِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الحَقَّ بالباطِلِ وتَكْتُمُونَ الحقَّ وأنتمْ تَعْلَمون ﴾ . وفى المراد أقوال : أحدها أن المراد تحريفهم التوراة والانجيل . ثانيها أن المراد إظهارهم الاسلام وإبطانهم النفاق . ثالثها أن المراد الإيمان بموسى وعيسى ، والكفر بمحمد عليهم السلام . رابعها أن المراد ما يعلمونه فى قلوبهم من حقيقة رسالته ﷺ وما يظهرونه من تكذيبه

الإقرارُ بالحقِّ للتوصُّل الى دفعه

(الثانية والخمسون) : التعصب للمذهب ، والاقرار بالحق للتوصل الى دفعه . قال تعالى فى سورة آل عمران (٧١ - ٧٤) : ﴿ وقالتْ طائفةٌ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ آمِنُوا بالَّذِى أُنْزِلَ على الَّذينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ واكْفُروا آخِرَهُ لَعَلَّهمْ يَرْجِعُون . ولا تُؤْمِنُوا إلاّ لِمَنْ تَبِعَ

دِينَكُمْ ، قُلْ إنَّ الهُدَى هُدَى اللهِ أنْ يُؤتَى أحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ أو يُحاجُّوكُمْ بهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ ، قُلْ إنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ واللهُ واسِعٌ عَلِيم . يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ واللهُ ذو الفَضْلِ الْعَظِيم ﴾ قال الحسن والسدى : تواطأ اثنا عشر رجلا من أحبار يهود خيبر وقرى عرين وقال بعضهم لبعض : ادخلوا فى دين محمد أول النهار باللسان دون الاعتقاد ، واكفروا آخر النهار وقولوا : إنا نظرنا فى كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا محمداً ليس بذاك ، وظهر لنا كذبه وبطلان دينه ، فاذا فعلتم ذلك شك أصحابه فى دينهم وقالوا : أنهم أهل كتاب ، وهم أعلم به ، فيرجعون عن دينهم الى دينكم

اتّخاذُ النبيّين أربابا

(الثالثة والخمسون) : تسميتهم اتّباع الإسلام شركاً . قال تعالى (آل عمران ٧٩ - ٨٠) : ﴿ما كانَ لِبَشَرٍ أن يُؤتِيَهُ اللهُ الكِتابَ والحُكْمَ والنُّبُوَّةَ ثمَّ يقولَ للنّاسِ كونوا عِباداً لى من دُونِ الله ولكن كونوا رَبّانِيِّينَ بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الكتابَ وبِما كنتمْ تَدْرُسُون . ولا يَأمُرَكُمْ أنْ تتّخِذوا المَلائِكَةَ والنَّبِيِّينَ أرْباباً ، أيَأمُرُكُمْ بالكُفرِ بعدَ إذْ أنتمْ مُسْلِمون﴾ أخرج ابن اسحاق بسنده :

حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم الى الاسلام [قالوا] : أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم ؟ فقال رجل من أهل نجران نصرانى يقال له الرئيس : أو ذاك تريد منا يا محمد ؟ فقال رسول الله ﷺ « معاذ الله أن نعبد غير الله ، أو نأمر بعبادة غيره ، ما بذلك بعثنى ولا بذلك أمرنى » . فأنزل الله تعالى الآية

تحريفُ الْكَلِمِ عن مَواضعِه

(الرابعة والخمسون) : تحريف الكلم عن مواضعه ، ولَىّ الألسنة بالكتاب . قال تعالى فى سورة آل عمران (٧٨) : ﴿ وإنَّ مِنهُمْ لَفَرِيقاً يَلوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بالْكِتابِ لِتَحْسَبوهُ مِنَ الْكِتابِ وما هُوَ مِنَ الْكِتابِ ويُقولونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وما هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيقولونَ علىٰ اللهِ الْكَذِبَ وهم يَعْلَمون ﴾ روى أن الآية نزلت فى اليهود والنصارى جميعا وذلك أنهم حرّفوا التوراة و الإنجيل وألحقوا بكتاب الله تعالى ما ليس منه . واختلف الناس فى أن المحرّف هل كان يُكتب فى التوراة أم لا ؟ فذهب جمع الى أنه ليس فى التوراة سوى كلام الله تعالى ، وأن تحريف اليهود لم يكن إلا تغييراً وقت القراءة ، وتأويلا باطلا للنصوص . وأما أنهم يكتبون ما يرومون فى التوراة على تعدد

نسخها فلا . واحتجوا لذلك بما روى أن التوراة والانجيل كما أنزلهما الله تعالى لم يغير منهما حرف ، ولكنهم يضلون بالتحريف والتأويل وكتب كانوا يكتبونها من عند أنفسهم ويقولون إن ذلك من عند الله وما هو من عند الله . فأما كتب الله تعالى فانها محفوظة لا تحول ، وبأن النبي ﷺ كان يقول لليهود إلزاماً لهم « ائتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين » وهم يمتنعون عن ذلك ، فلو كانت مغيرة إلى ما يوافق مرامهم ما امتنعوا ، بل وما كان يقول لهم ذلك رسول الله ﷺ لأنه يعود على مطلبه الشريف بالإبطال . وذهب آخرون الى أنهم بدلوا وكتبوا ذلك فى نفس كتابهم ، واحتجوا على ذلك بكثير من الظواهر[1] ولا يمنع من ذلك تعدد النسخ لاحتمال التواطؤ أو فعل ذلك فى البعض دون البعض ، وكذا لا يمنع منه قول الرسول لهم ذلك لاحتمال علمه ببقاء بعض ما يفى بغرضه سالماً عن التغيير . إما لجهلهم بوجه دلالته أو لصرف الله تعالى إياهم عن تغييره ، وتمام الكلام فى تفسير الجد[2] عند الكلام على هذه الآية وكذا فى (الجواب الصحيح) لشيخ الاسلام . وكثير من الأمة المحمدية سلكوا مسلك الكتابيين فى التحريف والتأويل واتباع شهواتهم ، وقال تعالى فى سورة النساء

---

(١) ومنها أن السفر المنسوب الى موسى نفسه مذكور فيه خبر وفاة موسى مكتوبا من بعده ، فكيف يوحى اليه أو يصدر عنه ما كتب بعده ؟ محب الدين

(٢) يعنى جد المؤلف وتفسيره روح (المعانى)

(٤٦) : ﴿ مِنَ الَّذِينَ هادوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَواضِعِه ويَقولونَ سَمِعْنا وعَصَيْنا واسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وراعِنا لَيًّا بأَلْسِنَتِهِمْ وطَعْناً في الدِّينِ ، ولو أَنَّهمْ قالوا سَمِعْنا وأَطَعْنا واسْمَعْ وانْظُرْنا لَكانَ خَيْراً لهمْ وأَقْوَمَ ولٰكِنْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فلا يُؤْمِنونَ إلاَّ قَلِيلاً ﴾ والكلام على هذه الآية أيضاً مستوفى فى التفسير

تلقيبُ أهل الهُدَى بألقابٍ غَرِيبة

(الخامسة والخمسون) : تلقيب أهل الهدىٰ بالصابئة والحشوية ، فقد كان أهل الجاهلية يلقبون من خرج عن دينهم بالصابئ ، كما كانوا يسمون رسول الله ﷺ بذلك ، كما ورد فى عدة أحاديث من صحيح البخارى ومسلم وغيرهما ، تنفيراً للناس عن اتباع غير سبيلهم . وهكذا تجد كثيراً من هذه الأمة يطلقون على من خالفهم فى بدعهم وأهوائهم أسماء مكروهة للناس . والصابئة أمة قديمة على مذاهب مختلفة قد تكلم عليها أهل المقالات بما لا مزيد عليه . وأما الحشوية فهم قوم كانوا يقولون بجواز ورود ما لا معنى له فى الكتاب والسنة كالحروف فى أوائل السور ، كذا قال بعضهم ، وهم الذين قال فيهم الحسن البصرى لما وجد قولهم ساقطا وكانوا يجلسون فى حلقته أمامه : ردّوا هؤلاء الى حشا الحلقة ، أى جانبها . وخصوم السّلفيين يرمونهم بهذا الاسم

تنفيراً للناس عن اتباعهم والأخذ بأقوالهم حيث يقولون فى المتشابه ﴿ لا يعلم تأويله إلا الله ﴾ ، وقد أخطأت أستهم الحفرة ، فالسلف لا يقولون بورود ما لا معنى له لا فى الكتاب ولا فى السنة ، بل يقولون فى الاستواء مثلا : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والاقرار به إيمان . والجحود به كفر . وقد أطال الكلام فى هذه المسألة شيخ الاسلام ابن تيمية فى كثير من كتبه ، ولخص ذلك فى كتابه (جواب أهل الايمان) فى التفاضل بين آيات القرآن[1] . ومن الناس من فرق بين مذهب السلف ومذهب الحشوية ، بأن مذهب الحشوية ورود ما يتعذر التوصل الى معناه المراد مطلقاً ، فالاستواء مثلا عندهم له معنى يَتوصل اليه بمجرد سماعه كلٌّ من يعرف الموضوعات اللغوية ، إلا أنه غير مراد ، لأنه خلاف ما يقتضيه دليل العقل والنقل ، ومعنى آخر يليق به تعالى لا يعلمه إلا هو عزّ وجلّ ، وكيف يكون مذهب السلف هو مذهب الحشوية وقد رأى الحسن البصرى الذى هو من أكابر السلف سقوط قول الحشوية ولم يرض أن يقعد قائله تجاهه . والمقصود أن أهل الباطل من المبتدعة رموا أهل السنة والحديث بمثل هذا اللقب الخبيث . قال أبو محمد عبد الله بن قتيبة فى (تأويل مختلف

---

(١) وقد أعاد طبعه ناشر هذا الكتاب فى المطبعة السلفية بعناية وتدقيق

الحديث) : إن أصحاب البدع سموا أهل الحديث بالحشوية والنابتة والمتجبرة والجبرية وسموهم الغثاء ، وهذه كلها أنباز لم يأت بها خبر عن رسول الله ﷺ كما أتى فى القدرية « انهم مجوس هذه الامة ، فان مرضوا فلا تعودوهم ، وان ماتوا فلا تشهدوا جنائزهم » . وفى الرافضة « يكون قوم فى آخر الزمان يسمون الرافضة يرفضون الاسلام ويلفظونه فاقتلوهم فانهم مشركون » . وفى المرجئة « صنفان من أمتى لا تنالهم شفاعتى لعنوا على لسان سبعين نبياً : المرجئة والقدرية » . وفى الخوارج « يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » و « كلاب أهل النار » هذه أسماء من رسول الله ﷺ وتلك أسماء مصنوعة انتهى . وفى (الغنية [1]) : أن الباطنية تسمى أهل الحديث حشوية لقولهم بالاخبار وتعلقهم بالآثار . انتهى . وفى كتاب (حجة الله البالغة)[2] : واستطال هؤلاء الخائضون على معشر أهل الحديث وسموهم مجسمة ومشبهة وقالوا : هم المتسترون بالبلكفة [3] وقد وضح لدىّ وضوحاً بيّنا أن استطالتهم هذه ليست بشىء ، وأنهم مخطئون فى روايتهم رواية ودراية ، وخاطئون فى طعنهم أئمة الهدى . انتهى . وقد قال العلامة ابن القيم فى كافيته الشافية : فصل فى تلقيبهم أهل السنة بالحشوية ، ويقال : من

---

(١) للشيخ عبد القادر الجيلانى (٢) لشاه ولى الله الدهلوى (٣) من كلمة (بلا كيف)

أولى بالوصف المذموم فى هذا اللقب من الطائفتين ؟ وذكر أول من لقب به أهل السنة من أهل البدع :

ومن العجائب قولهم لمن اقتدى ... بالوحى من أثر ومن قرآن
حشوية يعنون حشواً فى الوجو ... د وفضلة فى أمة الانسان
ويظنّ جاهلهم: بأنهمُ حشوا ... ربّ العباد بداخل الأكوان
إذ قولهم فوق العباد وفى السما ... ء الرب ذو الملكوت والسلطان
ظَنَّ الحمير بأن « فى » للظرف والـ ... رحمن محوىٌّ بظرف مكان
والله لم يسمع بذا من فرقة ... قالته فى زمن من الأزمان
لا تبهتوا أهل الحديث به فما ... ذا قولهم تباً لذى البهتان
بل قولهم إن السموات العلى ... فى كف خالق هذه الأكوان
حقاً كخردلة ترى فى كف ممسكها تعالى الله ذو السلطان
أترونه المحصور بعد ، أم السما ؟ ... يا قومنا ارتدعوا عن العدوان
كم ذا مشبهة وذا حشوية ... صرف بلا جحد ولا كتمان
تدرون من سمّتْ شيوخكمُ بهذا الاسم فى الماضى من الأزمان ؟
سمى به عمرو لعبد الله[1] ذا ... ك ابن الخليفة طارد الشيطان
فورثتم عمرواً كما ورثوا لعبد ... الله أنَّى يستوى الارثان

---

(١) عمرو هو ابن عبيد رأس المعتزلة ، وعبد الله هو ابن أمير المؤمنين عمر . انظر (المنتقى من منهاج الاعتدال) طبع السلفية ص ٩٣

تدرون من أولى بهذا الاسم وهو مناسب أحـــواله بوزان؟
من قد حشى الاوراق والاذهان من بدع تخالف مقتضى القـرآن
هذا هو الحشوى ، لا أهل الحديث ، أئمـة الاســـلام والايمـان
وردوا عِذاب مناهل السنن التى ليست زبالة هـذه الأذهـان
ووردتم القلوط[1] مجرى كل ذى ال أوساخ والأقذار والأنتـان
وكسلتم أن تصعدوا للوِرد من أثر الشرائع خيبة الـكسلان

وحاصل هذه الابيات أن أعداء الحق وخصوم السنة وأضداد الـكتاب والسنة يلقبون سلف الأمة المتمسكين بالـكتاب والسنة بلقب الحشوية ، فالخواص منهم يقصدون بهذا الاسم أن المسمى به حشو فى الوجود وفضلة فى الناس لا يعبأ بهم ولا يقام لهم وزن إذ لم يتبعوا آراءهم الـكاسدة وأفـكارهم الفاسدة ، وأما العوام منهم فيظنون أن تسمية السلف بالحشوية لقولهم بالفوقية وكون الاله فى السماء ، بمعنى أنهم اعتقدوا ـ وحاشاهم ـ أن الله تعالى حشو هـذا الوجود وأنه داخل الـكون ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ، وهذا بهتان عظيم على أهل الحديث . على أن هذا القول لم يقل به أحد . وأعداء الحق فى عصرنا هذا على هذا المسلك الجاهلى ، فتراهم يرمون كل من تمسك

(١) القلوط وتسميه العامة قليط : مجرى ماء فى دمشق ، تنحدر اليه مياه المطابخ والحمامات والمراحيض

بالـكتاب والسنة بكل لقب مذموم بين المسلمين . والله المستعان على ما تصفون

التـكذيبُ بالحق

(السادسة والخمسون) : افتراء الـكذب على الله ، والتـكذيب بالحق . وشواهد هذه المسألة من الـكتاب والسنة كثير ، وهذا دأب المخالفين الدين المبين كاليهود والنصارى : يدَّعون أن ما هم عليه هو الحق ، وأن الله أمرهم بالتمسك به . وأن الدين المبين ليس بحق ، وأن الله تعالى أمرهم بتكذيبه . كل ذلك لاتباع أسلافهم ، لا ينظرون الى الدليل . وهكذا أهل البدع والضلالات يعتقدون بدعهم الحق وأن الله أمرهم بها ، وأن ما عليه أهل الحق مفترى لا يصدقون به

وكلٌّ يدَّعى وصلا لليلىٰ وليلىٰ لا تقرُّ لهم بذاكا

الافتراءُ على المؤمنين

(السابعة والخمسون) : رمى المؤمنين بطلب العلوّ فى الارض . قال تعالى فى سورة يونس (٧٨) : ﴿ قالوا أَجِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عمَّا وَجَدْنا عَليهِ آباءَنا وتَكونَ لَكُما الكِبْرِياء فى الأرضِ وما نحنُ لَكُما بمُؤْمِنين ﴾ هـذا الـكلام مسوق لبيان أن موسى عليه السلام ألقمهم الحجر ،

فانقطعوا عن الاتيان بكلام له تعلق بكلامه عليـه السلام فضلا عن الجواب الصحيح ، و اضطروا الى التشبث بذيل التقليد الذى هو دأب كل عاجز محجوج ، وديدن كل معالج لجوج . على أنه استئناف وقع جواباً عما قبله من كلامه عليه السلام على طريقـة قال موسى ، كأنه قيل : فماذا قالوا لموسى عليه السلام حين قال لهم ما قال ؟ فقيل : قالوا عاجزين عن المحاجة ﴿ أجِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عما وجدنا عليه آباءنا وتـكونَ لـكما الـكِبْرياء فى الأرض ﴾ أى الملك كما روى عن مجاهد ، وعن الزجاج أنه إنما سمى الملك كبرياء لأنه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا ؛ فـكل من دعا الى الحق رماه من كان على المسلك الجاهلى أن قصده من الدعوة طلب الرياسة و الجاه ، من غير أن ينظروا الى ما دعا اليه وما قام عليه من البراهين

رميُ المؤمنين بالفساد فى الارض

(الثامنة والخمسون) : رميُ المؤمنين بالفساد فى الارض . شاهد هذه المسألة آيات كثيرة ، حاصلها أن المخالفين لهم من المؤمنين مفسدون فى الأرض . انظر الى قولهم فى أوائل سورة البقرة (١١-١٢) كيف ادَّعوا أنهم هم مصلحون . وقد ردّ الله عليهم بقوله ﴿ ألا إنَّهمْ همُ المفْسِدُونَ ولٰـكنْ لا يَشْعُرون ﴾ وهكذا من هو على شاكلة أولئك

من الذين استحّلوا غيهم وتمكنت بدعهم من قلوبهم :

ومَن يكُ ذا فم مرٍّ مريضٍ   يجـدْ مرّاً به الماءَ الزُّلالا

نسأله تعالى أن يثبت قلوبنا على دينه القويم ، وأقدامنا على الصراط المستقيم

رميُ المؤمنين بتبديل الدين

(التاسعة والخمسون) : رميُ المؤمنين بتبديل الدين . قال تعالى فى سورة غافر (٢٦) : ﴿ إِنِّى أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِى الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ اعتقدوا أن ما هم عليه من الضلال هو الدين الحق ، ومن أراد تحويلهم عن اعتقادهم الكاسد وصرفهم عما هم عليه من الغى [فقد أراد] إخراجهم من الدين وإفساداً فى الأرض . وهكذا ديدن أعداء الحق فى كل عصر » .

اتهامُ أهل الحقِّ بالفساد فى الأرض

(الستون) : كونهم اذا غلبوا بالحجة فزعوا الى السيف والشكوى الى الملوك و [دعوى] احتقار السلطان و [تحويل] الرعية عن دينه . قال تعالى فى سورة الاعراف (١٢٧) : ﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ ﴾ فانظر الى شكوى آل فرعون وقومه اليه ، وتحريشهم

إياه على مقاتلة موسى عليه السلام وتهييجه . وما ذكر فى آخر الآية من احتقار ما كانوا عليه

تَناقُضُ مذهبهم لما تركوا الحق

(الحادية والستون) : تناقض مذهبهم لما تركوا الحق . قال تعالى فى سورة قٓ (٤ ـ ٥) : ﴿ قد عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الأرضُ منهم ، وعندَنا كِتابٌ حَفيظ . بل كذَّبوا بالحقِّ لمَّا جاءَهم فهُمْ فى أمْرٍ مَرِيجٍ ﴾ فقوله ﴿ بل كذبوا بالحق ﴾ إلخ إضراب اتبع الاضراب الأول للدلالة على أنهم جاءوا بما هو أقطع من تعجبهم وهو التكذيب بالحق الذى هو النبوّة الثابتة بالمعجزات فى أول وهلة من غير تفكر ولا تدبر ، ﴿ فهم فى أمر مريج ﴾ مضطرب ، وذلك بسبب نفيهم النبوّة عن البشر بالكلية تارة ، وزعمهم أن اللائق بها أهل الجاه والمال كما ينبئ عنه قولهم ﴿ لولا أُنزِلَ هٰذا القرْآنُ على رَجُلٍ مِنَ القرْيَتَيْن عَظِيم ﴾ تارة أخرى ، وزعمهم أن النبوة سحر مرة ، وأنها كهانة أخرى ، حيث قالوا فى النبى ﷺ مرة ساحر ومرة كاهن ، أو هو اختلاف حالهم ما بين تعجب من البعث واستبعاد له ، وتكذيب وتردد فيه ، أو قولهم فى القرآن هو شعر تارة ، وهو سحر أخرى . وقال تعالى فى سورة الذاريات (٧ ـ ١١) : ﴿ والسَّماء ذاتِ الْحُبُكِ إنَّكمْ لَفى قَوْل

مُخْتَلِف . يُؤْفَكُ عنهُ مَنْ أُفِكَ . قُتِلَ الخَرّاصُون . الَّذِينَ هُمْ فى غَمْرَةٍ ساهُون ﴾ الحبك جمع حبيكة كطريقة أو حِبَاك كمثال ومثل ، والمراد بها إما الطرق المحسوسة التى تسير فيها الكواكب ، أو المعقولة التى تدرك بالبصيرة ، وهى ما يدل على وحدة الصانع وقدرته وعلمه وحكمته إذا تأملها الناظر . وقوله ﴿ إنكم لفى قول مختلف ﴾ أى متخالف متناقض فى أمر الله عز وجل ، حيث تقولون إنه جل شأنه خلق السموات والأرض ، وتقولون بصحة عبادة الاصنام معه سبحانه . وفى أمر الرسول ﷺ فتقولون تارة إنه مجنون ، وأخرى انه ساحر . ولا يكون الساحر إلا عاقلا . وفى أمر الحشر فتقولون تارة لا حشر ولا حياة بعد الموت أصلا ، وتزعمون أخرى أن أصنامكم شفعاؤكم عند الله تعالى يوم القيامة ، إلى غير ذلك من الأقوال المتخالفة فيما كلفوا بالايمان به . وقوله ﴿ يؤفك عنه مَن أُفك ﴾ أى يصرف عن الايمان بما كلفوا الايمان به . ﴿ قُتل الخرّاصون ﴾ أى الكذّابون من أصحاب القول المختلف ﴿ الذين هم فى غمرة ساهون ﴾ الغمرة الجهل العظيم يغمرهم ويشملهم شمول الماء الغامر لما فيه . والسهو الغفلة . وقال تعالى فى أواخر سورة الانعام (١٥٩) : ﴿ إنَّ الَّذينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وكانوا شِيَعاً لَسْتَ مِنهمْ فى شئ ، إنَّما أمْرُهمْ إلى الله ثمَّ يُنَبِّئُهُمْ بما كانوا يَفْعَلون ﴾

هذه الآية استئناف لبيان أحوال أهل الكتابين إثر بيان حال المشركين بناء على ما روى عن ابن عباس وقتادة أن الآية نزلت فى اليهود والنصارى ، أى بدّدوا دينهم وبعّضوه ، فتمسك بكل بعض منه فرقة منهم ﴿ وكانوا شِيَعاً ﴾ أى فرقاً تشايع كل فرقة إماما وتتبعه ، أى تقويه وتظهر أمره . أخرج أبو داود والترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، كلهم فى الهاوية إلا واحدة . وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة ، كلهم فى الهاوية إلا واحدة . وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ، كلهم فى الهاوية إلا واحدة » واستثناء الواحدة من فرق كل من أهل الكتابين إنما هو بالنظر الى العصر الماضى قبل النسخ ، وأما بعده فالكل فى الهاوية وان اختلفت أسباب دخولهم . ﴿ لستَ منهم فى شىء ﴾ أى من السؤال عنهم والبحث عن تفرقهم ، أو من عقابهم ، أو أنت برىء منهم . ﴿ إنما أمرهم الى الله ﴾ تعليل للنفى المذكور ، أى هو يتولى وحده أمرهم أولاهم وأخراهم ويدبره حسبما تقتضيه الحكمة . ومن الناس من قال : المفرقون أهل البدع من هذه الأمة . فقد أخرج الحكيم الترمذى وابن جرير والطبرانى وغيرهم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله سبحانه ﴿ ان الذين فرّقوا ﴾ إلخ هم أهل البدع والأهواء من هذه الأمة ، فيكون الكلام حينئذ استئنافاً لبيان حال المبتدعين

إثر بيان حال المشركين ، إشارة الى أنهم ليسوا منهم ببعيد

والمقصود أن أهل الجاهلية سواء كانوا أميين أو كتابيين قد فرقوا دينهم وتغايروا فى الاعتقاد ، فكان عباد الأصنام كل قوم لهم صنم يدينون له ولهم شرائع مختلفة فى عبادتها . ومنهم من كان يعبد كوكبا ومنهم من كان يعبد الشمس ، ومنهم ومنهم . وكذلك الكتابيون على ما بينا . فالافتراق ناشىء عن الجهل ، وإلا فالشريعة الحقة فى كل زمان لا تعدد فيها ولا اختلاف ، ولذلك ترى القرآن يوحّد الحق ويعدّد الباطل ، قال تعالى (البقرة ٢٥٧) : ﴿ اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إلىٰ النُّور ، والَّذِينَ كَفَرُوا أوْلِياؤُهُمُ الطاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إلىٰ الظُّلمات ﴾ فانظر كيف أفرد النور الذى هو الحق ، وجمع الظلمات التى هى الباطل والزيغ ، فتفرقة الآراء والاختلاف فى الاعتقاد من خصال الجاهلية وما كان عليه أهل الباطل ، والاتفاق على العقيدة الحقة هو من دأب أتباع الرسل والمتمسكين بما شرعه الله تعالى

دعواهم العملَ بالحقّ الذى عندَهم

(الثانية والستون) : دعواهم العمل بالحق الذى عندهم ، كما قال

تعالى فى سورة البقرة (٩١) : ﴿ وإذا قِيلَ لهمْ آمِنُوا بما أنْزَلَ اللهُ قالوا نُؤْمِنُ بما أُنْزِلَ عَلَيْنا ويَكْفُرونَ بِما وَراءَهُ وهُوَ الحَقُّ مُصَدِّقاً لِما مَعَهُمْ ، قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أنبياءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين ﴾ أى نستمر على الايمان بالتوراة وما فى حكمها مما أنزل لتقرير حكمها . ومرادهم بضمير المتكلم إما أنبياء بنى إسرائيل وهو الظاهر ، وفيه إيماء الى أن عدم إيمانهم بالقرآن كان بغياً وحسداً على نزوله على من ليس منهم ، وإما أنفسهم ومعنى الإنزال عليهم تكليفهم بما فى المنزل من الأحكام ، وندموا على هذه المقالة لما فيها من التعريض بشأن القرآن . ودسائس اليهود مشهورة ، وتمام الكلام فى التفسير

الزِّيادةُ فى العبادة

(الثالثة والستون) : الزيادة فى العبادة ، كفعلهم يوم عاشوراء .

النقص من العبادة

(الرابعة والستون) : النقص منها ، كتركهم الوقوف . قال تعالى (البقرة ١٩٩) : ﴿ ثمَّ أفِيضُوا مِنْ حيثُ أفاضَ الناس ﴾ أى من عرفة لا من مزدلفة . والخطاب عام ، والمقصود إبطال ما كان عليه الحُمسُ من الوقوف بجَمْع ، فقد أخرج البخارى ومسلم عن عائشة رضى

الله تعالى عنها قالت : كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة ، وكانوا يسمون الحُمس ، وكان سائر العرب يقفون بعرفات . فلما جاء الاسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتى عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها فذلك قوله سبحانه ﴿ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ﴾ ومعناها : ثم أفيضوا أيها الحجاج من مكان أفاض جنس الناس منه قديماً وحديثاً وهو عرفة ، لا من مزدلفة

تعبُّدهم بترك الطيِّبات من الرزق

(الخامسة والستون) : تعبُّدهم بترك أكل الطيّبات من الرزق ، وترك زينة الله التى أخرج لعباده . قال تعالى فى سورة الاعراف (٣١ - ٣٢) : ﴿ يا بَنى آدمَ خُذوا زِينتَكُمْ عِندَ كلِّ مَسْجد ، وكُلوا واشْرَبوا ولا تسْرِفوا ، إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُسْرِفين . قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينةَ اللهِ الَّتى أخْرَجَ لِعبادِه والطيّباتِ من الرِّزق ، قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فى الحْياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يومَ القِيامـة ، كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمون ﴾ . وسبب النزول على ما روى عن ابن عباس أنه كان أناس من الأعراب يطوفون بالبيت عراة ، حتى انْ كانت المرأة لتطوف بالبيت وهى عريانة فتعلق على سفلها سيوراً مثل هـذه السيور التى تـكون على وجه الحمر من الذباب وهى تقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله　　وما بدا منه فلا أحله

فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿يا بنى آدم﴾ الخ ﴿وكلوا واشربوا﴾ مما طاب لكم ، قال الكلبى كان أهل الجاهلية لا يأكلون من الطعام إلا قوتاً ، ولا يأكلون دسماً فى أيام حجهم يعظمون بذلك حجهم ، فقال المسلمون : يا رسول الله نحن أحق بذلك . فأنزل الله تعالى الآية . ومنه يظهر وجه ذكر الأكل والشرب هنا ﴿ولا تسرفوا﴾ بتحريم الحلال كما هو المناسب لسبب النزول أو بالتعدى الى الحرام ﴿قل من حرَّم زينةَ الله التى أخرج لعباده﴾ من الثياب وكل ما يتجمل به ﴿والطيبات من الرزق﴾ أى من المستلذّات ، وقيل المحللات ، من المآكل والمشارب كلحم الشاة وشحمها ولبنها ﴿قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا﴾ أى هى لهم بالأصالة لمزيد كرامتهم على الله تعالى ، والكفرة ان شاركوهم فيها فبالتبع ، ﴿خالصة يوم القيامة﴾ لا يشاركهم فيها غيرهم

تعبُّدهم بالمُكاء والتَّصْدِية

(السادسة والستون) : تعبُّدهم بالمكاء والتصدية . قال تعالى فى سورة الأنفال (٣٥) : ﴿وما كانَ صَلاتُهُمْ عِندَ البيتِ إلاّ مُكاءً وتَصْدِيَة ، فذُوقوا العَذاب بما كنتم تَكْفُرون﴾ تفسير هذه الآية

﴿ وما كان صلاتهم عند البيت ﴾ أى المسجد الحرام الذى صدّوا المسلمين عنه ، والتعبير عنه بالبيت للاختصار مع الإشارة الى أنه بيت الله تعالى ، فينبغى أن يعظم بالعبادة ، وهم لم يفعلوا إلا مُـكاء أى صفيراً وتَصْدية أى تصفيقاً ، وهو ضرب اليد باليد بحيث يسمع له صوت . والمراد بالصلاة إما الدعاء أو أفعال أخر كانوا يفعلونها ويسمونها صلاة ، وحمل المـكاء والتصدية عليها بتأويل ذلك بأنها لا فائدة فيها ولا معنى لها كصفير الطيور وتصفيق اللعب . وقد يقال : المراد أنهم وضعوا المـكاء والتصدية موضع الصلاة التى يليق أن تقع عند البيت . يروى أنهم كانوا إذا أراد النبى ﷺ أن يصلى يخلّطون عليـــه بالصفير والتصفيق . ويرون أنهم يصلون أيضاً . ويروى أنهم كانوا يطوفون عراة الرجال والنساء مشبكين بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون . وباقى الآية معلوم . والمقصود أن مثل هذه الافعال لا تـكون عبادة بل من شعائر الجاهلية . فما يفعله اليوم بعض جهلة المسلمين فى المساجد من المـكاء والتصدية يزعمون أنهم يذكرون الله فهو من قبيل فعل الجاهلية . وما أحسن ما يقول القائل فيهم :

أقال اللهُ صَفِّقْ لى وغنِّ   وقل كفراً وسمِّ الكفرَ ذكرا ؟

وقد جعل الشارع صوت الملاهى صوت الشيطان ، قال تعالى

(الإسراء ٦٤) : ﴿واسْتَفزِزْ مَنِ استَطَعْتَ مِنهمْ بِصَوْتِك، واجْلِبْ عَلَيهمْ بِخَيْلِكَ ورَجْلِكَ ، وشارِكْهُمْ فى الأمْوالِ والْأوْلادِ ، وعِدْهُمْ وما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إلاّ غُرورا﴾

النِّفاقُ فى العقيدة

(السابعة والستون) : دعواهم الإيمانَ عند المؤمنين ؛ فاذا خرجوا خرجوا بالكفر الذى دخلوا به

دُعاؤهم الى الضلال بغير علم

(الثامنة والستون) : دعاؤهم الناسَ الى الضلال بغير علم

دعاؤهم الى الكفر مع العلم

(التاسعة و الستون) : دعاؤهم الناس الى الكفر مع العلم

المكرُ الكُبّار

(السبعون) : المكر الكبّار . كفعل قوم نوح ، قال تعالى فى سورة نوح عليه السلام (٢٢ ـ ٢٤) : ﴿ ومَكَرُوا مَكْراً كُبّاراً . وقالوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ولا تَذَرُنَّ وَداً ولا سُواعاً ولا يَغُوثَ ويَعُوقَ و نَسْراً . وقد أَضَلُّوا كثيراً ﴾ ومعنى الكبّار الكبير .

والمكر الكبّار احتيالهم فى الدين وصدهم للناس عنه وإغراؤهم وتحريضهم على أذية نوح عليه السلام . وهكذا فعل أخلاف هؤلاء من مَرَدَة الدين وأتباع الهوى وعَبَدَة الدنيا ، يفعلون مع دعاة الحق كما فعل قوم نوح عليه السلام معه ، قد تشابهت قلوبهم . نسأله تعالى أن يعيذ رجال الحق من كيد مثل هؤلاء الفجرة ، ويصونهم من مكرهم

وقد جرَّبتُهم فرأيتُ منهم خبائثَ ، بالمهيمن نستجير

حالةُ علمائهم

(الحادية والسبعون) : أئمتهم إما عالم فاجر ، وإما عابد جاهل . قال تعالى (البقرة ٧٥ ـ ٧٩) : ﴿ أفتَطْمَعُونَ أنْ يُؤْمِنُوا لَكُم وقد كانَ فَرِيقٌ منهمْ يَسْمَعونَ كلامَ اللهِ ثمَّ يُحرِّفونَهُ مِنْ بعدِ ما عَقَلوهُ وهم يَعْلَمون . وإذا لَقُوا الَّذينَ آمَنوا قالوا آمَنّا وإذا خَلا بعضُهمْ إلىٰ بعضٍ قالوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بما فَتَحَ اللهُ عليكمْ لِيُحاجُّوكم بهِ عندَ ربِّكم ، أفلا تَعْقِلون . أوَ لا يَعْلَمونَ أنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وما يُعْلِنون . ومنهم أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الكِتابَ إلاّ أمانِيَّ وإنْ هم إلاّ يَظُنُّون . فوَيلٌ للذينَ يَكْتُبونَ الكِتابَ بأيْديهِمْ ثمَّ يَقولونَ هٰذا مِنْ عندِ اللهِ ليَشْتَروا بهِ ثمَناً قَليلا ، فوَيلٌ لهم ممّا كَتَبَتْ أيديهِمْ وَوَيلٌ لهمْ

مما يكسبون ﴾ فذكر فى الآية أن فريقاً من أسلاف اليهود - وهم الأحبار - كانوا يسمعون التوراة ويُأوّلونها تأويلا فاسـداً حسب أغراضهم ، بل كانوا يحرّفونها بتبديل كلام من تلقائهم كما فعلوا ذلك فى نعته ﷺ ، فانه روى أن من صفاته فيها أنه أبيض ربعة فغيروه باسمر طويل ، وغيروا آية الرجم بالتسخيم وتسويد الوجه كما فى البخارى ﴿ ومنهم ﴾ فريق ﴿ أميون لا يعلمون الكتاب ﴾ إلا بالدعاوى الكاذبة والمراد بهم جهلة مقلدة لا إدراك لهم ، وتمام الكلام فى هذا المقام يطلب من التفسير . والمقصود أن تحريف الكلم واتباع الهوى والقول على الله من غير علم من خصال الجاهلية ، وأنت تعلم حال أحبار السوء اليوم والرهبان الذين يقولون على الله ما لا يُعلم قد تجاوزوا الحد فى اتباع الهوى وتأويل النصوص وما أشبه ذلك مما يستحى منه الاسلام . والامر لله

زعمهم أنهم هم أوّلياء الله

(الثانية والسبعون) : زعمهم أنهم أولياء الله من دون الناس . دليل هذه المسألة قوله تعالى فى سورة الجمعة (٦ - ٨) : ﴿ قُلْ يا أيُّها الَّذينَ هادوا ﴾ أى تهوّدوا ، أى صاروا يهوداً ﴿ إنْ زَعَمْتُمْ أنَّكُمْ أولياء لله ﴾ أى أحباء له سبحانه ، ولم يضف أولياء اليه تعالى كما فى

قوله سبحانه ﴿ ألا إن أولياء الله ﴾ ليؤذن بالفرق بين مدعى الولاية ومن يخصه بها ﴿ مِنْ دُونِ الناس ﴾ أى متجاوزين عن الناس ﴿ فَتَمَنَّوُا الموتَ ﴾ أى فتمنوا من الله تعالى أن يميتكم وينقلكم من دار البلية الى محل الكرامة ﴿ إنْ كُنتم صادِقين ﴾ فى زعمكم ، واثقين بأنه حق ، فتمنوا الموت فان من أيقن أنه من أهل الجنة أحب أن يتخلص اليها من هذه الدار التى هى قرارة الانكار والأكدار .

وأمر ﷺ أن يقول لهم ذلك إظهاراً لكذبهم ، فانهم كانوا يقولون ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ ويدّعون أن الآخرة لهم عند الله خالصة ويقولون ﴿ لَنْ يَدْخُلَ الجنَّة إلاَّ مَنْ كان هُوداً ﴾ كما أخبر تعالى عن الكتابيين فى كتابه فقال جل شأنه (البقرة ١١١ - ١١٢) : ﴿ وقالوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إلاّ مَنْ كانَ هُوداً أو نَصارىٰ ، تلكَ أَمانيُّهمْ ، قُلْ هاتوا بُرْهانَكُمْ إنْ كنتمْ صادِقين . بَلىٰ مَنْ أسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وهوَ مُحْسِنٌ فلهُ أجْرُهُ عندَ ربِّهِ ولا خَوْفٌ عليهمْ ولا هُمْ يَحْزَنون ﴾ وروى أنه لما ظهر رسول الله ﷺ كتبت يهود المدينة ليهود خيبر : إن اتبعتم محمداً أطعناه ، وإن خالفتموه خالفناه . فقالوا : نحن أبناء خليل الرحمن ، ومنا عزير بن الله والأنبياء ، ومتى كانت النبوّة فى العرب ؟ نحن أحقُّ بها من محمد ، ولا سبيل الى اتباعه . فنزلت (الجمعة

٦-٧) : ﴿قُلْ يٰأَيُّها الَّذينَ هادُوا﴾ الآية . ﴿ولا يَتمَنَّوْنَهُ أبداً﴾ إخبار بحالهم المستقبل ، وهو عدم تمنيهم الموت ، وذلك خاص بأولئك المخاطبين . وروى أن رسول الله ﷺ قال لهم « والذى نفسى بيده ، لا يقولها أحد منكم إلا غصَّ بريقه » فلم يتمنه أحد منهم ، وما ذلك إلا لأنهم كانوا موقنين بصدقه ﷺ فعلموا أنهم لو تمنوا لماتوا من ساعتهم ولحقهم الوعيد ، وهذه احدى المعجزات . ﴿ بما قَدَّمَتْ أيديهم ﴾ أى بسببه ، كأنه قيل : انتفى تمنيهم بسبب ما قدمتْ ، والمراد بما قدمته أيديهم الـكفر والمعاصى الموجبة لدخول النار ، ولما كانت اليد من بين جوارح الانسان مناط عامة أفعاله عبّر بها تارة عن النفس وأخرى عن القدرة ﴿ واللهُ عَليمٌ بالظالمين ﴾ أى بهم ، وإيثارُ الإظهار على الإضمار لذمهم ، والتسجيل عليهم بأنهم ظالمون فى كل ما يأتون ويذرون من الأمور التى من جملتها ادّعاء ما هم عنه بمعزل ، أى والله عليم بما صدر منهم من فنون الظلم والمعاصى ، وبما سيكون منهم ، فيجازيهم على ذلك ﴿قُلْ إنَّ الموتَ الذى تَفِرُّونَ منه﴾ ولا تجسرون على أن تمنَّوْه مخافة أن تؤخذوا بوبال أفعالـكم ﴿ فانه مُلاقيـكم ﴾ البتة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه ﴿ ثمَّ تُرَدُّونَ الى عالِمِ الغيبِ والشهادة ﴾ الذى لا تخفى عليه خافيـة ﴿ فيُنبِّئُـكم بما كنتم تعملون ﴾ من الـكفر والمعاصى بأن يجازيكم بها ، وهذا ديدن الزائغين

وشأن الملحدين ، كما قال تعالى عن اليهود ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم ، بل أنتم بشر ممن خلق ﴾ . وقد ورث هذه الخصلة كثير ممن ينتمى الى الملة الاسلامية ، بل كل من الفرَق مَن يقول نحن أولياء الله ، مع أن النبى ﷺ قال فى حديث الفرق فى بيان الفرقة الناجية : « وهم من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابى »

دعوى محبَّة الله ، مع تَرْكِ شَرْعه

(الثالثة والسبعون) : دعواهم محبة الله مع ترك شرعه ، فطالبهم سبحانه بقوله فى سورة آل عمران (٣١) : ﴿ قُلْ إنْ كنتمْ تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعُونى يُحْبِبْكُمُ اللهُ ويَغْفِرْ ذُنوبَكُمْ ، واللهُ غفورٌ رحيم ﴾ .

قال الحسن وابن جريج : زعم أقوام على عهد رسول الله ﷺ أنهم يحبون الله ، فقالوا : يا محمد إنا نحب ربنا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : وقف النبى ﷺ على قريش فى المسجد الحرام وقد نصبوا أصنامهم ، وعلقوا عليها بيض النعام ، وجعلوا فى آذانها الشنوف[1] وهم يسجدون لها فقال « يا معشر قريش ، لقد خالفتم ملة أبيكم إبراهيم وإسماعيل ، ولقد كانا على الاسلام . فقالت

---

(١) الشنف : القرط الأعلى ، أو معلاق فى قوف الاذن ، أو ما علق فى أعلاها . جمعه شنوف . وما علق فى أسفل الأذن قرط

قريش : يا محمد ، إنما نعبد هذه حباً لله ، لتقرّبنا الى الله زلفى . فأنزل الله تعالى ﴿ قل ان كنتم تحبون الله ﴾ الخ . وفى رواية أبى صالح أن اليهود لما قالوا ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ أنزل الله هذه الآية ، فلما نزلت عرَضها رسول الله ﷺ على اليهود فأبوا أن يقبلوها . وروى محمد بن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير قال : نزلت فى نصارى نجران ، وذلك أنهم قالوا إنما نعظم المسيح ، نعبده حباً لله وتعظيما له ، فأنزل الله تعالى هذه الآية رداً عليهم . وبالجملة إن من تلبّس بالمعاصى لا ينبغى له أن يدعى محبة الله . وما أحسن قول القائل :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه   هذا لعمرى فى القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته   إن المحب لمن يحب مطيع

تمنّيهم على الله الأمانىَّ الكاذبة

(الرابعة والسبعون) : تمنيهم على الله تعالى الأمانىّ الكاذبة ، قال تعالى فى سورة آل عمران (٢٣ ـ ٢٤) : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِينَ أُوتوا نَصِيباً من الكِتابِ يُدْعَوْنَ إلى كِتابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بينَهم ، ثم يَتولَّى فريقٌ منهم وهُمْ مُعْرِضون . ذٰلك بأنَّهمْ قالوا لَنْ تَمَسَّنا النارُ إلاّ أياماً مَعْدوداتٍ وغَرَّهُمْ فى دِينِهم ما كانوا يَفْتَرون ﴾ . أخرج

ابن إسحاق وجماعة عن ابن عباس قال : دخل رسول الله ﷺ بيت المدراس على جماعة من يهود ، فدعاهم الى الله تعالى . فقال النعمان بن عمرو والحارث بن زيد : على أيّ دين أنتَ يا محمد ؟ قال « على ملة ابراهيم ودينه » . قالا : فانَّ إبراهيم كان يهودياً . فقال لهما رسول الله ﷺ « فهلما إلى التوراة ، فهى بيننا و بينكم ، فأبَوا عليه » فأنزل الله تعالى الآية . وفى البحر : زنىٰ رجل من اليهود بامرأة ، ولم يكن بعدُ فى ديننا الرجم ، فتحاكموا الى رسول الله ﷺ تخفيفاً على الزانيَيْن لشرفهما ، فقال رسول الله ﷺ « إنما أحكم بكتابكم » فأنكروا الرجم فجىء بالتوراة فوضع حبرهم بن صوريا يده على آية الرجم ، فقال عبد الله ابن سلام : جاوزَها يا رسول الله ، فاظهرها ، فرجما . فغضبت اليهود ، فنزلت . ومعنى قوله ﴿ ذٰلِكَ بأَنَّهمْ قالوا لَنْ تَمَسَّنا النارُ إلاّ أياما مَعْدودات ﴾ أى المذكور من التولّى والاعراض حاصل لهم بسبب هذا القول الذى رسخ اعتقادهم به وهوَّنوا به الخطوب ، ولم يبالوا معه بارتكاب المعاصى والذنوب . والمراد بالأيام المعدودات أيام عبادتهم العجل ﴿ وغَرَّهُمْ فى دِينِهِمْ ما كانوا يَفْتَرون ﴾ أى غرّهم افتراؤهم وكذبهم أو الذى كانوا يفترونه من قولهم ﴿ لن تمسَّنا النار ﴾ أو من قولهم ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ أو مما يشمل ذلك ونحوه من قولهم :

ان آباءنا الأنبياء يشفعون لنا ، وأن الله تعالى وعد يعقوب أن لا يعذب أبناءه إلا تحلة القسم ، فردّ عليهم بقوله سبحانه ﴿ فكيف إذا جمعناهم ﴾ الخ . روى أن أول راية ترفع لأهل الموقف من رايات الكفار راية اليهود ، فيفضحهم الله تعالى على رءوس الأشهاد ، ثم يأمر بهم الى النار . وهكذا رأينا كثيراً من أهل زماننا يفعلون ما يفعلون من المنكرات اعتماداً على الشفاعة أو على علوّ الحسب وشرف النسب والله المستعان . وفى سورة البقرة (٨٠ ـ ٨١) : ﴿ وقالوا لَنْ تَمَسَّنا النارُ إلاّ أيّاماً مَعْدودة ، قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عندَ اللهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ ، أمْ تقولونَ على اللهِ مالا تَعْلمون . بَلىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وأحاطَتْ به خطِيئَتُه فأُولئِكَ أصْحابُ النارِ هُمْ فيها خالِدون ﴾

اتّخاذُ قبور الصالحين مَساجِدَ

(الخامسة والسبعون) : اتخاذ قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد . هذه المسألة من خصال الكتابيين أيام جاهليتهم ، وفى ذلك ورد الحديث الصحيح « لعن الله اليهودَ والنصارى اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجد » ثم قال « فلا تتخذوها مساجد » وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « قاتل الله اليهودَ والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وفى لفظ لمسلم « لعن الله اليهودَ والنصارى

اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وفى الصحيحين عن عائشة و ابن عباس قال : لما نُزِل بِرسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه ، فاذا اغتمَّ بها كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك « لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذِّر ما صنعوا . وفى الصحيحين أيضاً عن عائشة أن أم سلمة وأم حبيبة ذكرتا لرسول الله ﷺ كنيسة رأينها بأرض الحبشة يقال لها مارية . وذكرتا من حسنها وتصاوير فيها ، فقال رسول الله ﷺ « أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح ـ أو الرجل الصالح ـ بنوا على قبره مسجداً وصوّروا فيه تلك الصور ، أولئك شرارُ الخلق عند الله » وعن ابن عباس قال « لعن رسولُ الله ﷺ زائراتِ القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » رواه أهل السنن الأربعة . فهذا التحذير منه ، واللعنُ عن مشابهة أهل الكتاب فى بناء المسجد على قبر الرجل الصالح صريح فى النهى عن المشابهة ، وفى هذا دليل على الحذر من جنس أعمالهم حيث لا يؤمَن فى سائر أعمالهم أن يكون من هذا الجنس . ثم من المعلوم ما قد ابتلى به كثير من هذه الأمة من بناء القبور مساجدَ واتخاذ القبور مساجدَ بلا بناء ، وكلا الأمرين محرم ملعون فاعله بالمستفيض من السنة ، وليس هذا موضع استقصاء ما فى ذلك من سائر الأحاديث والآثار ، ولهذا كان السلف يبالغون فى المنع

اتخاذُ آثارِ الأنبياء مساجدَ

(السادسة والسبعون) : اتخاذ آثار أنبيائهم مساجد ، كما ورد عن عمر رضى الله عنه . فإن هذه المسألة أيضاً من بدع جاهلية الكتابيين ، كانوا يتخذون آثار أنبيائهم مساجدَ ، فورثهم الجاهلون من هذه الامة ، فتراهم يبنون على موضع اختفى به النبي ﷺ أو وصل قدمه المبارك اليه أو تعبد فيه ، وهذا ليس مما يحمد فى الشريعة لجرِّه الى الغلو . وفى العراق مواضع كثيرة بنوا عليها مبانى كالمقام الذى زعموا أن الشيخ الكيلانى تعبد فيه ، وكأثر الكف الذى زعم الشيعة أنه أثر كف الامام على لما وضعه على الصخرة فأثر فيها فبنوا عليها مسجداً ، وكمدَّة أماكن زعموا أن الخضر رؤى فيها ولا أصل له ، الى غير ذلك مما لا يستوعبه المقام ، فينبغى لمن يدَّعى الاسلام أن يتجنبها وينهى عن حضورها ، وإن رمى بالإنكار ، وعداوة الاشرار ، وكيد المارقين الفجار . وفى المسألة تفصيل لا بأس بذكره : قال شيخ الإسلام أما مقامات الانبياء والصالحين ـ وهى الأمكنة التى قاموا فيها أو أقاموا أو عبدوا الله سبحانه لكنهم لم يتخذوها مساجد ـ فالذى بلغنى فى ذلك قولان عن العلماء المشهورين : أحدهما النهى عن ذلك وكراهته وأنه لا يستحب قصد بقعة للعبادة إلا أن يكون قصدها للعبادة مما جاء

به الشرع ، مثل أن يكون النبي ﷺ قصدها للعبادة ، كما قصد الصلاة فى مقام إبراهيم ، وكما كان يتحرّى الصلاة عند الاسطوانة ، وكما تقصد المساجد للصلاة ، ويقصد الصف الاول ونحو ذلك . والقول الثانى أنه لا بأس باليسير من ذلك كما نقل عن ابن عمر أنه كان يتحرى قصد المواضع التى سلكها النبي ﷺ وان كان النبي ﷺ سلكها اتفاقاً لا قصداً [١] . وسئل الإمام أحمد عن الرجل يأتى هذه المشاهد ويذهب اليها : ترى ذلك ؟ قال : أما على حديث ابن أم مكتوم أنه سأل النبي ﷺ أن يصلى فى بيته حتى يتخذ ذلك مصلى ، وعلى ما كان يفعله ابن عمر يتبع مواضع النبي ﷺ وأثره ، فليس بذلك بأس أن يأتى الرجل المشاهد . إلا أن الناس قد أفرطوا فى هذا جداً وأكثروا فيه [٢] . وكذلك نقل عنه أحمد بن القاسم أنه سئل عن الرجل يأتى هذه المشاهد التى بالمدينة وغيرها يذهب اليها ، فقال : أما على حديث ابن أم مكتوم أنه سأل النبي ﷺ أن يأتيه فيصلى فى بيته حتى يتخذه مسجداً ، وعلى ما كان يفعل ابن عمر كان يتبع مواضع سير النبي ﷺ حتى أنه رؤى يصب فى موضع ماء فسئل عن ذلك فقال : رأيت النبي ﷺ

---

(١) وكان أبوه أمير المؤمنين عمر على عكس ذلك كما سيأتى ، وانظر ص١٠٥ من (التوسل والوسيلة) طبع السلفية

(٢) فما بالك بما وصل اليه الامر بعد زمن الامام أحمد !

يصب هنا ماء ، قال : أما على هذا فلا بأس . قال : ورخص فيه ، ثم قال : ولكن قد أفرط الناس جداً وأكثروا فى هذا المعنى ، فذكر قبر الحسين وما يفعل الناس عنده . رواهما الخلال فى كتاب الادب .
فقد فصل أبو عبد الله فى المشاهد وهى الأمكنة التى فيها آثار الانبياء والصالحين من غير أن تكون مساجد لهم كمواضع بالمدينة بين القليل الذى لا يتخذونه عيداً أو الكثير الذى يتخذونه عيداً كما تقدم .
وهذا التفصيل جمع فيه بين الآثار وأقوال الصحابة . فانه قد روى البخارى فى صحيحه عن موسى بن عقبة قال : رأيت سالما بن عبد الله يتحرى أماكن من الطريق ويصلى فيها ويحدّث أن أباه كان يصلى فيها وأنه رأى النبى ﷺ يصلى فى تلك الأمكنة ، فهذا كما رخص الإمام أحمد . وأما كراهته فروى سعيد بن منصور فى سننه قال : حدثنا أبو معاوية قال حدثنا الاعمش عن المعرور بن سويد عن عمر قال خرجنا معه فى حجة حجها فقرأ بنا فى الفجر بألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ولإيلاف قريش فى الثانية ، فلما رجع من حجته رأى الناس ابتدروا المسجد فقال : ما هذا ؟ فقالوا : مسجد صلى رسول الله ﷺ فيه . فقال : هكذا هلك أهل الكتاب قبلكم ، اتخذوا آثار أنبيائهم بِيَعا ، من عرضت له منكم الصلاة فيه فليصل ومن لم تعرض له الصلاة فليمض . فقد كره عمر اتخاذ مصلى النبى ﷺ عيداً وبيّن

أن أهل الكتاب انما هلكوا بمثل هذا ، كانوا يتبعون آثار أنبيائهم ويتخذونها كنائس و بيعا [١] . وروى محمد بن وضاح وغيره أن عمر ابن الخطاب أمر بقطع الشجرة التى بويع تحتها النبى ﷺ لأن الناس كانوا يذهبون تحتها فخاف عمر الفتنة عليهم

وما ذكره عمر هو الحرىّ بالقبول ، وهو مذهب جمهور الصحابة - غير ابنه - وهو الذى يجب العمل به ويعول عليه

اتِّخاذُ السُّرُج على القبور

(السابعة والسبعون) : اتخاذ السرج على القبور . دليل حرمة ذلك ما ورد عن رسول الله ﷺ من الحديث الذى سبق ذكره من لعن من يفعل ذلك . وليتك رأيت ما يوقد فى ترب أئمة أهل البيت ونحوها من الشموع ، ولا سيما فى ليالى رمضان والليالى المباركة ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا

اتّخاذُ القبور أعياداً

(الثامنة والسبعون) : اتخاذها أعياداً . اعلم ان العيد اسم لما يعود

(١) انظر ص ١٢ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٢٤ من (التوسل والوسيلة) لشيخ الاسلام ابن تيمية ، طبع السلفية

من الاجتماع العام على وجه معتاد عائداً ما بعود السنة أو يعود الاسبوع أو الشهر أو نحو ذلك[1] فالعيد يجمع أموراً منها يوم عائد كيوم الفطر ويوم الجمعة . ومنها اجتماع فيه . ومنها أعمال تجمع ذلك من العبادات أو العادات . وقد يختص العيد بمكان بعينه وقد يكون مطلقاً . هؤلاء مسلمو أهل العراق لكل تربةٍ ولىٍّ يومٌ مخصوص يجتمعون فيه للزيارة كزيارة الغدير وسردّ الرأس . ومنهم من خُص له يوم من أيام الاسبوع : فالجمعة لفلان ، والثلاثاء لفلان ، وهكذا . ومن ذلك بعض الأيام والليالى المباركة كليلة القدر وأيام الاعياد وليلة النصف من شعبان وغير ذلك مما لم ينزل الله به من سلطان

الذَّبحُ عند القبور

(التاسعة والسبعون) : الذبح عند القبور . قال الله تعالى (الانعام ١٦٢ ـ ١٦٣) : ﴿ قُلْ إنَّ صَلاتى ونُسُكى ومَحْياىَ ومَماتى للهِ ربِّ العالَمِين . لا شَرِيكَ له وبِذٰلكَ أُمِرْتُ وأنا أوَّلُ المُسْلِمِين ﴾ أمره الله أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون له ، أى أنه أخلص لله صلاته وذبيحته ، لأن المشركين يعبدون الأصنام ويذبحون لها ،

---

(١) ويسمى فى مصر « مولدا » وان كان المنسوب اليه المولد مجهول يوم مولده أو سنة مولده

فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه والانقياد بالقصد والنية والعزم على الاخلاص لله تعالى ، فمن تقرَّب لغير الله ليدفع عنه ضيراً أو يجلب له خيراً تعظيما له من الكفر الاعتقادى والشرك الذى كان عليه الأوَّلون . وسبب مشروعية التسمية تخصيص مثل هذه الامور العظام ، بالاله الحق المعبود العلام . فاذا قصد بالذبح غيره كان أولى بالمنع . وصح نهيه ﷺ عمن استأذنه بالذبح ببوانة وأنه قد نذر ذلك فقال له ﷺ « أكان فيها صنم » ؟ قال : لا . قال : « فهل كان فيها عيد من أعياد المشركين » ؟ قال : لا . قال له « فأَوْفِ بِنَذْرِكَ » أخرج ذلك أبو داود فى سننه . وهذا السائل موحد مقرب لله سبحانه وتعالى وحده ، لكن المكان الذى فيه معبود غير الله وقد عدم ، أو محل لاجتماعهم ، يصلح مانعاً . فلما علم ﷺ أن ليس هناك شىء من ذلك أجازه . ولو علم شيئاً مما سأل عنه لمنعه صيانة لحمى التوحيد وقطعاً لذريعة الشرك . وصح أيضاً عنه ﷺ أنه قال « دخل الجنة رجل فى ذباب ، ودخل النار رجل فى ذباب . قالوا : كيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : مرّ رجلان على قوم لهم صنم لا يجاوزه أحد حتى يقرِّب له شيئاً قالوا له : قرِّب ولو ذبابا ، فقرَّب ذبابا ، فخلوا سبيله ، فدخل النار . وقالوا للآخر : قرِّب . قال : ما كنت أقرِّب شيئاً لأحد دون الله عز وجل ، فضربوا عنقه ، فدخل الجنة » . ففى هذا الحديث من

الفوائد كون المقرِّب دخل النار بالسبب الذى لم يقصده ، بل فعله تخلصاً من شرهم ، وأنه كان مسلماً وإلا لم يقل دخل النار . وفيه ما ينبغى الاهتمام به من أعمال القلوب التى هى المقصود الأعظم والركن الأكبر . فتأمل فى ذلك وانظر الى فؤادك فى جميع ما قالوه ، وألق سمعك لما ذكروه ، وانظر الحق فان الحق أبلج والباطل لجلج . فبالنظر التام الى ما كان عليه المشركون من تقربهم لأوثانهم لتقريبهم الى الله لكونهم شفعاء لهم عند الله ، وشفاعتهم بسبب أنهم رسل الله أو ملائكة الله أو أولياء الله ، يتبين لك ما عليه الناس الآن . والله المستعان

التبرُّك بآثار المعظَّمين

(الثمانون) : التبرُّك بآثار المعظمين ، كدار الندوة ، وافتخار من كان تحت يده بذلك . كما قيل لحكيم بن حزام : بعتَ مَكرُمة قريش ، فقال : ذهبت المكارم إلا التقوى . هذه الخصلة قد امتدت عروق ضلالها فى أودية قلوب جهلة المسلمين ، وزادوا فى الغلوّ بها على ما كان عليه جاهلية العرب والكتابيين ، ولا بدع من حكيم ابن حزام القريشى الأسدى اذا ما ردّ على من قال له بعتَ مكرمة قريش وقد باعها من معاوية بمائة ألف درهم : ذهبَتِ المكارمُ إلا التقوى .

كيف لا وقد كان عاقلا سريا فاضلا تقيا سيداً بماله غنياً ، أعتق فى الجاهلية مائة رقبة ، وحمل على مائة بعير ، وحج فى الإسلام ومعه مائة بدنة قد جلّلها بالحبرة وكفها عن أعجازها وأهداها ، ووقف بمائة وصيف بعرفة فى أعناقهم أطواق الفضة منقوش فيها « عتقاء الله ، عن حكيم بن حزام » ، وأهدى ألف شاة . وهو الذى عاش فى الجاهلية ستين سنة ، وفى الاسلام ستين سنة ، وولد فى الكعبة

(الحادية والثمانون) : الفخر بالاحساب

(الثانية والثمانون) : الاستسقاء بالانواء

(الثالثة والثمانون) : الطعن فى الانساب

(الرابعة والثمانون) : النياحة . أقول : هذه المسائل الأربع دليل بطلانها حديث واحد ، وهو ما رواه البخارى ومسلم واللفظ لمسلم بسنده الى أبى مالك الأشعرى أن النبى ﷺ حدّثه قال « أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخرُ فى الاحساب ، والطعن فى الانساب والاستسقاء بالنجوم ، والناحبة ـ أو قال النائحة ـ اذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قَطِران ودرع من جرَب » . الفخر فى الأحساب افتخارهم بمفاخر الآباء ، والطعن فى الأنساب إدخالهم العيب فى أنساب الناس تحقيراً لآبائهم وتفضيلا لآباء أنفسهم على آباء

غيرهم ، والاستسقاء بالنجوم اعتقادهم نزول المطر بسقوط نجم فى المغرب مع الفجر وطلوع آخر يقابله من المشرق ، فقد كانوا يقولون : مطرنا بِنَوْء كذا ، وقال تعالى (الواقعة ٨٢) : ﴿ وتَجْعَلون رِزْقَكمْ أنّكمْ تُكَذِّبون ﴾ وهذا مفصل فى كتب الأنواء بما لا مزيد عليه . ومعنى قوله فى النائحة « وعليها سربال من قَطِران » أن الله تعالى يجازيها بلباس من قطران ، لانها كانت تلبس الثياب السود . وقوله « درع من جرَب » يعنى يسلط على أعضائها الجرب والحِكّة بحيث يغطى بدنها تغطية الدرع - وهو القميص - لأنها كانت تجرح بكلماتها المحرقة قلوب ذوى المصيبات . فهذا الحديث دل على بطلان ما كان عليه أهل الجاهلية من هذه الخصال الرديئة . وورثتهم اليوم طائفة من هذه الأمة تجاوزوا فيها أسلافهم وزادوا فى الطنبور نغمات ، فتراهم يفتخرون بمزايا آبائهم وهم بمراحل عنهم ، فهذا يقول : كان جدى الشيخ الفلانى ، وهذا يقول : جدى العالم الربانى ، الى غير ذلك . وكذلك الطعن فى الانساب ، فهذا يقول : إن آباء فلان لم يكونوا من العترة الطاهرة ، وذاك يقول : إن آباء فلان لم يكونوا من ذوى الاحساب الباهرة . وكذلك الاستسقاء بالأنواء ، ولم يعتقد كثير من الناس أن ما كان [إنما هو] من فعل رب الأرض والسماء . وهكذا النوح على الأموات فقد اتخذه كثير من الناس من أفضل الأعمال ، وسببَ الوصول الى

مرضاة ذى الجلال ، لا سيما من اتخذ المآتم الحسينية فى كل عام .
فهناك من البدع ما تكل عن نقله ألسنة الأقلام ، والويل كل الويل
لمن أنكر شيئاً من ذلك ، فانهم يوردونه موارد العطب والمهالك .
والأمر لله ، ولا حول ولا قوة الا بالله

تعييرُ الرَّجُل بفعل أمِّه وأبيه

(الخامسة والثمانون) : تعيير الرجل بفعل غيره ، لا سيما أبوه وأمه
فخالفهم ﷺ وقال «أعيرتَه بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية» والحديث
فى صحيح الامام البخارى فى باب المعاصى من أمر الجاهلية ولا يكفر
صاحبها بارتكابها إلا بالشرك لقول النبى ﷺ «إنك امرؤ فيك
جاهلية» وقول الله تعالى (النساء ٤٨ و ١١٦) : ﴿ إنَّ اللهَ لا يَغفِرُ
أنْ يُشْرَكَ بهِ ويَغفِرُ ما دُونَ ذٰلكَ لِمَنْ يَشاء ﴾ . وهذا الباب فى
كتاب الايمان من صحيحه ثم قال : حدثنا سليمان بن حرب قال :
حدثنا شعبة عن واصل عن المعرور قال : لقيت أبا ذر بالربذة ، وعليه
حلة وعلى غلامه حلة ، فسألته عن ذلك فقال : انى ساببت رجلا فعيرته
بامه ، فقال لى النبى ﷺ «يا أبا ذر ، أعيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك
جاهلية . إخوانكم خوَلكم ، جعلهم الله تعالى تحت أيديكم ، فمن كان
أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم

ما يغلبهم ، فان كلفتموهم فأعينوهم » . وقد أطنب شراح الحديث فى شرحه ، وليس هذا موضع استقصائه . والمقصود منه أن تعيير الرجل بفعل غيره ليس من شأن كامل الإيمان والمعرفة . فان أبا ذر رضى الله تعالى عنه قبل بلوغه المرتبة القصوى من المعرفة تسابَّ هو وبلال الحبشى المؤذن فقال له : يا ابن السوداء . فلما شكا بلال الى رسول الله ﷺ قال له « شتمتَ بلالا وعيرته بسواد أمه ! قال : نعم . قال « حسبتُ أنه بقى فيك شىء من كبر الجاهلية » فألقى أبو ذر خده على التراب ثم قال : لا أرفع خدى حتى يطأ بلال خدي بقدمه . والناس اليوم ـ والأمر لله ـ قد كثرت فيهم خصال الجاهلية ، فتراهم يعيرون أهل البلد كلهم بما صدر عن واحد منهم ، فأين من ذلك خصال الجاهلية ؟

الافتخارُ بولاية البيت

(السادسة والثمانون) : الافتخار بولاية البيت . فذمهم الله تعالى بقوله ﴿ مستكبرين به سامراً تهجُرون ﴾ وهذه الآية فى سورة المؤمنين (٦٦ ـ ٦٧) وهى بتمامها قوله تعالى ﴿ قد كانتْ آياتى تُتْلىٰ عليكمْ فكُنْتُمْ علىٰ أعقابِكمْ تنكِصون . مُسْتَكْبِرينَ به سامِراً تَهْجُرون ﴾ ومعنى هذه الآية على مافى التفسير ﴿ قد كانت آياتى تتلى عليكم ﴾ تعليل لقوله قبل (٦٥) : ﴿ لا تَجْأَرُوا اليومَ إنَّكم مِنّا

لا تُنْصَرون ﴾ أى دعوا الصراخ فانه لا يمنعكم منا ولا ينفعكم عندنا، فقد ارتكبتم أمراً عظيما وإثماً كبيراً وهو التكذيب بالآيات ، فلا يدفعه الصراخ ، فكنتم عند تلاوتها ﴿ على أعقابكم تنكِصون ﴾ أى تعرضون عن سماعها أشد الاعراض ، فضلا عن تصديقها والعمل بها . والنكوص : الرجوع . والأعقاب : جمع عقب وهو مؤخر الرجل . ورجوع الشخص على عقبه رجوعه فى طريقه الأول كما يقال : رجع عَوْدَهُ على بَدْئه . ﴿ مستكبرين به ﴾ أى بالبيت الحرام، والباء للسببية وسوغ بهذا الاضمار مع أنه لم يجر[1] ذكر اشتهار استكبارهم وافتخارهم بأنهم خدّام البيت وقوّامه ﴿ سامراً ﴾ أى تسمرون بذكر القرآن والطعن فيه ، وذلك أنهم كانوا يجتمعون حول البيت يسمرون وكانت عامة سمرهم ذكر القرآن وتسميته سحراً وشعراً ﴿ وتهجرون ﴾ من الهَجْر بفتح فسكون بمعنى القطع والترك ، والجملة فى موضع الحال ، أى تاركين الحق والقرآن أو النبى ﷺ على تقدير عود ضمير « به » له ، وجاء الهجر بمعنى الهذيان ، وجوز أن يكون المعنى عليه ، أى تهذون فى شأن القرآن أو النبى ﷺ أو أصحابه أو ما يعم جميع ذلك ، ويجوز أن يكون من الهُجْر بضم فسكون وهو الكلام القبيح ، فأنكر الله تعالى عليهم بقوله (٦٨) : ﴿ أفلم يَدَّبَّروا القول ﴾ ليعلموا - بما فيه من وجوه الاعجاز - أنه الحق من ربهم فيؤمنوا به ، ﴿ أم

(١) هكذا ولعل صحته ان يقال (وسوغ هذا الاضمار مع انه لم يجر للبيت

جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين ﴾ أى بل جاءهم الخ . والمقصود أن من خصال الجاهلية التكبر بسبب الرياسة على المواضع المقدّسة ، كما هو اليوم حال كثير ممن يدعى الشرف بسبب ذلك . فمنهم من ادّعى الشرف على المسلمين بسبب رياسته على مكة والمدينة ، ومنهم من ادعاه بسبب الرياسة فى المشاهد أو مقامات الصالحين ، وهؤلاء الذين يدعون انتسابهم الى عبد القادر الجيلى فى بغداد يدعون الشرف بسبب رياستهم على قبر عبد القادر واستيلائهم على النذور والصدقات والذبائح والقرابين الشركية التى يتعبّدها جهلة المسلمين من الهنود والأكراد ونحوهم ، وهم[1] أفسق خلق الله وأدناهم نفساً وأرذل خلق الله مسلكا فما يفيدهم ذلك عند الله شيئاً ، وما ينجيهم من مقت الله وعذابه ، وان ظن بهم العوام ما ظنوا ، فهم عند الله وعند عباده الصالحين أحقر من الذر ، وأبعدهم عن رحمته يوم القيامة

الافتخارُ بكونهم من ذرّية الأنبياء

(السابعة والثمانون) : الافتخار بكونهم من ذرية الأنبياء عليهم السلام . فردّ الله عليهم بقوله ﴿ تِلْكَ أُمَّـةٌ قد خَلَتْ لها ما كَسَبَتْ ولكم ما كَسَبْتم ولا تُسْألونَ عمّا كانوا يَعْمَلون ﴾ هذه الآية

---

(١) أى سدنة المشاهد والقبور

فى آخر الجزء الأول من سورة البقرة (١٣٤ ، ١٤١) وتفسيرها ﴿ تلك أمة قد خلت ﴾ الإشارة الى إبراهيم عليه السلام وأولاده فى قوله (١٣٠) : ﴿ ومَنْ يرْغَبُ عن مِلَّةِ إبراهيمَ إلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَه ، ولقــد اصْطَفَيْناهُ فى الدُّنيا وإنَّه فى الآخِرَةِ لِمَنَ الصالحين ﴾ الخ . و « الأمة » أتت لمعانٍ ، والمراد بها هنا الجماعة ، من أمَّ بمعنى قصد ، وسميت كل جماعة يجمعهم أمرٌ مّا - إما دين واحد أو زمان واحد أو مكان - بذلك لأنهم يؤمُّ بعضهم بعضاً ويقصده . والخلوّ : المضىّ وأصله الانفراد ﴿ لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ﴾ والمعنى أن انتسابكم اليهم لا يوجب انتفاعكم بأعمالهم وإنما تنتفعون بموافقتهم واتباعهم ، كما قال ﷺ « يا معشرَ قريش ، إن أَوْلىٰ النـاس بالنبىّ المتقون ، فـكونوا بسبيل من ذلك ، فانظروا أن لا يلقانى الناس يحملون الأعمال ، وتلقونى بالدنيا فأصدُّ عنكم بوجهى » وهذا الحديث بمعنى قوله تعالى (الحجرات ١٣) : ﴿ يا أيُّها الناسُ إنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنثىٰ وَجَعَلْناكُمْ شُعوباً وقَبائِلَ لِتَعارَفوا ، إنَّ أكْرَمَكُمْ عندَ اللهِ أتْقاكُمْ ﴾ ومعنى قوله ﴿ ولا تُسْألون عما كانوا يعملون ﴾ لا تؤاخَذون بسيئاتهم كما لا تثابون بحسناتهم . وهذه الخصلة موجودة اليوم فى كثير من المسلمين ، ورأس مالهم الافتخار بالآباء ، فمنهم من يقول : أنا من ذرية عبد القادر الـكيلانى ، ومنهم من يقول : أنا من ذرية

أحمد الرفاعى ، ومنهم من يقول : أنا بكرى ، ومنهم من يقول : أنا عمرى ، ومنهم من يقول : أنا علوى أو حسنى أو حسينى ، ولا فضيلة لهم ولا تقوى ، وكل ذلك لا ينفعهم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، ورسول الله ﷺ يقول لفاطمة « يا فاطمة بنتَ محمد ، لا أغنى عنكِ من الله شيئاً » وما قصد أولئك المفتخرين بآبائهم وهم عارون عن كل فضيلة إلاّ أكل أموال الناس بالباطل . وفى المثل « كن عِصامياً ولا تكن عِظامياً »

إن الفتىٰ من يقول ها أنا ذا ليس الفتىٰ من يقول كان أبى

ولله درُّ من قال يردُّ على المفتخر بمثل ذلك :

أقولُ لمن غدا فى كل يوم يباهينا بأسلاف عظام
أتقنع بالعظام وأنت تدرى بأن الكلب يقنع بالعظام

وقال آخر :

وما الفخرُ بالعظم الرميم وإنما فَخارُ الذى يبغى الفخار بنفسه

الافتخارُ بالصنائع

(الثامنة والثمانون) : الافتخار بالصنائع ، كما افتخر أهل الرحلتين على أهل الحرث . يريد بالرحلتين رحلة الشتاء الى اليمن ، ورحلة الصيف

الى الشام . وهى عادة كانت لقريش كما ذكر ذلك فى سورة الإيلاف والمقصود أنه لا ينبغى للتاجر أن يفتخر بتجارته على أهل الحرث ، ولا أهل كل حرفة على المحترفين بحرفة أخرى ، فان كل ذلك من المكاسب الدنيوية التى يتوصل بها الى عبادة الله وطاعته وامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، ليتوصل بذلك الى النجاة الأبدية وهى مدار الفخر . وأما ما سوى ذلك فكله ظل زائل ونعيم غير مقيم ، فلا ينبغى للعاقل أن يفخر بزخارف الدنيا الدنيئة ولا يعلمُ متى يفارقها . نسأله تعالى التوفيق ، والعمل الصالح الذى يرضيه

عَظَمةُ الدنيا فى قلوبهم

(التاسعة والثمانون) : عظمة الدنيا فى قلوبهم كقولهم ﴿ لَوْلا أُنْزِلَ هٰذا القرآنُ على رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيم ﴾ أى من خصال الجاهلية مراعاة الدنيا وعظمتها فى قلوبهم ، كما حكى الله عنهم ذلك بقوله ﴿ ولمّا جاءَهُمُ الحقُّ قالوا : هٰذا سِحْرٌ وإنّا به كافِرون . وقالوا لَوْلا أُنْزِلَ هٰذا القرآنُ على رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيم . أهم يَقْسِمونَ رَحْمةَ رَبِّكَ ، نحنُ قَسَمْنا بينَهم مَعيشَتَهُمْ فى الحياةِ الدُّنيا ، ورفَعْنا بَعْضَهُم فَوْقَ بعضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بعضُهم بعضاً سُخْرِيًّا ، ورَحْمةُ

رَبِّكَ خَيرٌ مِمَّا يَجْمَعون ﴾ هذه الآية فى سورة الزخرف (٣٠ – ٣٢) وموضع الاستشهاد فيها قوله ﴿ وقالوا لولا أُنزِلَ هذا القرآنُ على رجل من القريتين عظيم ﴾ المراد من القريتين مكة والطائف . قال ابن عباس : الذى من مكة الوَلِيدُ بن الْمغِيرة المَخْزومى ، والذى من الطائف حَبِيب بن عمرو بن عُمَير الثَّقَفِىّ ، وكل منهما كان عظيما ذا جاه ومال ، وكان الوليد بن المغيرة يسمى « رَيْحانة قريش » وكان يقول : لو كان ما يقول محمد حقا لنزل علىّ أو على أبى مسعود ، يعنى عُرْوة بن مسعود وكان يكنى بذلك . وهذا باب آخر من إنكارهم للنبوّة ، وذلك أنهم أنكروا أولا أن يكون النبى بشراً ، ثم لما بُكِتوا بتكرير الحجج ولم يبق عندهم تصور رواج لذلك جاءوا بالانكار من وجه آخر ، فحكموا على الله سبحانه أن يكون الرسول أحد هٰذين . وقولهم ﴿ هذا القرآن ﴾ ذكر له على وجه الاستهانة ، لأنهم لم يقولوا هذه المقالة تسليماً بل إنكاراً ، كأنه قيل هذا الكذب الذى يدّعيه لو كان حقا لكان الحقيقَ به رجل من القريتين عظيم ، وهذا منهم لجهلهم بأن رتبة الرسالة إنما تستدعى عظيم النفس بالتخلى عن الرذائل الدنية ، والتحلى بالكمالات والفضائل القدسية ، دون التزخرف بالزخارف الدنيوية . فأنكر سبحانه عليهم بقوله ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ وفيه تجهيل وتعجيب من تحكمهم بنزول القرآن العظيم على من أرادوا

﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ﴾ قسمة تقتضيها مشيئتنا المبنية على الحِكَم والمصالح ، ولم نفوّض أمرها اليهم ، علما منا بعجزهم عن تدبيرها بالكلية ﴿ ورفعنا بعضهم فوق بعض ﴾ فى الرزق وسائر مبادىء المعاش ﴿ درجات ﴾ متفاوتة بحسب القرب والبعد حسبما تقتضيه الحكمة ، فمن ضعيف وقوى وغنى وفقير وخادم ومخدوم وحاكم ومحكوم . ﴿ ليتخذ بعضهم بعضا سخرياً ﴾ ليستعمل بعضهم بعضا فى مصالحهم ويستخدموهم فى مهنهم ويسخّروهم فى أشغالهم ، حتى يتعايشوا ويترافدوا ويصلوا الى مرافقهم ، لا لكمال فى الموسع عليه ولا لنقص فى المقتّر عليه ، ولو فوضنا ذلك الى تدبيرهم لضاعوا وهلكوا . فاذا كانوا فى تدبير خُوَيْصة أمرهم وما يصلحهم من متاع الدنيا الدنية وهو على طرف الثمام بهذه الحالة ، فما ظنهم بأنفسهم فى تدبير أنفسهم وفى تدبير أمر الدين وهو أبعد من مناط العَيّوق ، ومن أين لهم البحث عن أمر النبوة والتخير لها من يصلح لها ويقوم بأمرها . وفى قوله تعالى ﴿ نحن قسمنا ﴾ الخ ما يرتد إلى عدم الانكباب على طلب الدنيا ويعين على التوكل على الله عز وجل والانقطاع اليه جلّ جلاله

فاعتبر « نحن قسمنا بينهم » تَلْقَهُ حقاً وبالحق نزل

﴿ ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ أى النبوّة وما يتبعها من

سعادة الدارين خير مما يجمعونه من حطام الدنيا الدنية ، فالعظيم من رزق تلك الرحمة دون ذلك الحطام الدنىء الفانى . وأنت تعلم أن كثيرا من الناس اليوم على ما كان عليه أهل الجاهلية فى هذه الخصلة فتراهم لا يعتبرون العلم اذا كان صاحبه فقير الحال ، وينظرون الى الغنى ويعتبرون أقواله ، ولله درّ من قال[1] :

رُبَّ حِلْمٍ أضاعه عَدَمُ الما ل وجهلٍ غطّى عليه النعيمُ

ازدراء الفقراء

(التسعون) : ازدراء الفقراء . فانزل سبحانه قوله ﴿ ولا تَطْرُدِ الَّذينَ يَدْعون ربَّهمْ بالغَداةِ والعَشىِّ يُرِيدونَ وَجْهَهُ ﴾ . أقول : هذه الآية فى أوائل سورة الانعام (٥٢) و بيان معناها متعلق بما قبلها وهو قوله تعالى (٥١) : ﴿ وأنْذِرْ به الذينَ يَخافونَ أنْ يُحْشَروا الى ربِّهم ليسَ لهم مِنْ دُونه وَلِىٌّ ولا شَفِيعٌ لعلّهم يَتَّقون . ولا تَطْرُدِ الذينَ يَدْعونَ ربَّهم بالغَداةِ والعَشِىّ يُرِيدونَ وَجْهَهُ ما عليكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شىءٍ وما مِنْ حِسابكَ عليهم من شىء فَتَطْرُدَهم فتكونَ مِنَ الظالمين ﴾ فلما أمر النبى ﷺ بانذار المذكورين لعلهم ينتظمون

(١) هو حسان بن ثابت الانصارى شاعر النبى صلى الله عليه وسلم

فى سلك المتقين نهى عن كون ذلك بحيث يؤدّى الى طردهم . ويفهم من بعض الروايات أن الآيتين نزلتا معاً ، ولا يفهم ذلك من البعض الآخر ، فقد أخرج الامام أحمد والطبرانى وغيرهما عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : مرّ الملأ من قريش على النبى ﷺ وعنده صُهَيب وعمّار وبلال وخبّاب ونحوهم من ضعفاء المسلمين فقالوا : يا محمد ، رضيتَ هؤلاء من قومك ، أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ، أنحن نكون تبعاً لهؤلاء ؟ اطردهم عنك ، فلعلك إن طردتهم أن نتبعك . فأنزل الله تعالى فيهم القرآن ﴿ وأنذر به الذين ﴾ الى قوله سبحانه ﴿ فتكون من الظالمين ﴾ . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ والبيهقى فى الدلائل وغيرهم عن خَبّاب قال : جاء الأقرع بن حابس التميمى وعُيَينة بن حصن الفَزارى فوجدا النبى ﷺ قاعدا مع بلال وصهيب وعمّار وخبّاب فى أناس ضعفاء من المؤمنين ، فلما رأوهم حوله حقروهم ، فأتوه فخلوا به فقالوا : نحب أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا العرب به فضلنا ، فان وفود العرب تأتيك فنستحى أن ترانا قعوداً مع هؤلاء الأعبد ، فاذا نحن جئناك فأقمهم عنا ، فاذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت . قال : نعم . قالوا : فاكتب لنا عليك بذلك كتاباً . فدعا بالصحيفة ودعا عليًّا ليكتب ـ ونحن قعود فى ناحية ـ إذ نزل جبريل بهذه الآية ﴿ ولا تطرد الذين ﴾ الخ . ثم دعانا فأتيناه وهو يقول

(الانعام ٥٤) : ﴿ سلامٌ عليكم كَتبَ ربُّكم على نفسِه الرَّحمة ﴾ فكنا نقعد معه فاذا أراد أن يقوم قام وتركنا ، فأنزل الله تعالى (الكهف ٢٨) : ﴿ واصْبِرْ نَفْسَكَ مع الذين يَدْعونَ ربَّهم بالغَداة والعَشِيّ يُريدون وجهَه ولا تَعْدُ عيناكَ عنهم تُرِيدُ زِينةَ الحياةِ الدُّنيا ، ولا تُطِعْ من أغفَلْنا قَلبَهُ عنْ ذِكْرِنا واتَّبَعَ هواهُ وكان أمرُهُ فرُطا ﴾ فكان رسول الله ﷺ يقعد معنا فاذا بلغ الساعة التى يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم . وأخرج ابن المنذر وغيره عن عكرمة قال : مشى عتبة وشيبة ابنا ربيعة وقرظة بن عبد عمرو بن نوفل والحارث ابن عامر بن نوفل ومطعم بن عدى فى أشراف الكفار من عبد مناف الى أبى طالب فقالوا : لو أن ابن أخيك طرد عنا هؤلاء الأعبد والحلفاء كان أعظم له فى صدورنا وأطوع له عندنا وأدنى لاتباعنا اياه وتصديقه . فذكر ذلك أبو طالب للنبى ﷺ ، فقال عمر بن الخطاب : لو فعلتَ يا رسول الله حتى ننظر ما يريدون بقولهم وما يصيرون اليه من أمرهم ، فأنزل الله سبحانه ﴿ وأنذر به الذين يخافون ﴾ الى قوله سبحانه ﴿ أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ وكانوا بلالاً وعمار بن ياسر وسالما مولى حذيفة وصبيحاً مولى أسيد ، والحلفاء ابن مسعود والمقداد بن عمرو وواقد بن عبد الله الحنظلى وعمرو بن عبد عمرو ومَرْثَد بن أبى مرثد وأشباههم

ونزل فى أئمة الكفر من قريش والموالى والحلفاء ﴿ وكذٰلكَ فَتَنَّا بعضَهم ببعض ﴾ فلما نزلت أقبل عمر فاعتذر من مقالته ، فانزل الله تعالى ﴿ وإذا جاءكَ الذينَ يُؤْمِنون بآياتِنا ﴾ وقوله ﴿ ما عليكَ مِنْ حِسابِهم مِنْ شَىء ﴾ جملة معترضة بين النهى وجوابه تقريراً له ودفعاً لما عسى أن يتوهم كونه مسوّغا لطرد المتقين من أقاويل الطاعنين فى دينهم كدأب قوم نوح حيث قالوا ﴿ ما نَراكَ اتَّبعكَ إلاّ الذينَ هُمْ أراذِلُنا بادِىَ الرأى ﴾ والمعنى ما عليك شىء ما من حساب إيمانهم وأعمالهم الباطنة كما يقوله المشركون حتى تتصدى له وتبنى على ذلك ما تراه من الأحكام ، وانما وظيفتك ـ حسبما هو شأن منصب الرسالة ـ النظرُ الى ظواهر الامور وإجراء الاحكام على موجبها ، وتفويض البواطن وحسابها الى اللطيف الخبير ، وظواهر هؤلاء دعاء ربهم بالغداة والعشى . وروى عن ابن زيد أن المعنى ما عليك شىء من حساب رزقهم أى من فقرهم ، والمراد لا يضرك فقرهم شيئاً ليصح لك الاقدام على ما أراده المشركون منك فيهم ، وقوله ﴿ وما مِنْ حِسابِكَ عليهم مِنْ شَىء ﴾ عطف على ما قبله ، وجىء به مع أن الجواب قد تم بذلك مبالغة فى بيان كون انتفاء حسابهم عليه ينظمه فى سلك ما لا شبهة فيه أصلا ، وهو انتفاء كون حسابه ﷺ عليهم ، فهو على طريقة قوله

سبحانه (الاعراف ٣٤ ، النحـــل ٦١) : ﴿ فاذا جاء أَجَلُهم لا يَسْتَأْخِرونَ ساعةً ولا يَسْتَقْدِمون ﴾ فى رأى . وقال الزمخشرى : إن الجملتين فى معنى جملة واحدة تؤدّى مؤدّى ﴿ ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ ﴾ (الانعام ١٦١ ، الاسراء ١٥ ، فاطر ١٨ ، الزمر ٧) ، كأنه قيل : لا تؤاخَذُ أنت ولا هم بحساب صاحبه ، وحينئذ لا بد من الجملتين . وتعقب بأنه غير حقيق بجلالة التنزيل . وقوله ﴿ فتكونَ من الظالمين ﴾ جواب النهى

انـكارُهم الملائكةَ والوحىَ والرسالةَ والبعث

(الحادية والتسعون) : عدم الإيمان بملائـكة الله وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والـكلام على ذلك مفصل فى التفسير وكتب الحديث والعقائد ، والآيات فى ذلك كثيرة ، منها قوله تعالى (التغابن ٧) : ﴿ زَعَمَ الَّذينَ كَفَرُوا أنْ لَنْ يُبْعَثوا ، قُلْ بلىٰ وربِّى لتُبْعَثُنَّ ثم لَتُنَبَّؤُنَّ بما عَمِلْتم ، وذٰلكَ علىٰ الله يَسِير ﴾ ومن الشعر الجاهلى فى إنـكار البعث والنشور :

وماذا بالقَلِيبِ قَلِيبِ بَدْر ... من الشِّيزىٰ تزيَّن بالسّنام

وماذا بالقليب قليب بـدر ... من القَيْنات والشَّرب الكرام

تحيينا السلامة أمّ بكـر ... فهل لى بعد قومى من سلام

يحدّثنا الرسول بأن سنحيا وكيف حياة أصْداء وهام

وقال آخر :

حياةٌ ثمّ موتٌ ثم نشرٌ حديثُ خُرافة يا أمّ عمرو

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى (الصافات ١٦ ـ ١٧ ، الواقعة ٤٧ ـ ٤٨) : ﴿ أإذا مِتْنا وكنّا تُراباً وعِظاماً أإنّا لَمبْعُوثون ، أو آباؤُنا الأوّلون ﴾ وقد تكلمنا على معتقدات الجاهلية وأديانهم فى غير هذا الموضع

إيمانهم بالجِبتِ والطاغوت

(الثانية والتسعون) : الايمان بالجبت والطاغوت وتفضيل دين المشركين على دين المسلمين . قال تعالى (النساء ٥١) : ﴿ أَلَمْ ترَ إلى الذينَ أوتوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُؤْمِنون بالجِبْتِ والطاغُوتِ ويقولونَ لِلَّذينَ كفروا هٰؤُلاء أهْدَى مِنَ الَّذينَ آمَنُوا سَبِيلا ﴾ وقد تقدم الكلام على ذلك مفصلا . والمقصود هنا أن جهلة الكتابيين كانوا يقولون للمشركين : أنتم أهدى من المسلمين ، وما عندكم خير مما عليه محمد وأصحابه . وترى المتصوّفة والغلاة اليوم على هذا المنهج يقولون : إن دعاة أهل القبور والغلاة خير ممن يمنع عن ذلك من أهل التوحيد وحفّاظ السنة

كِتمانُ الحقِّ مع العلم به

(الثالثة والتسعون) : كتمان الحق مع العلم به . كما حكى الله ذلك عن أحبار بنى إسرائيل من اليهود والنصارى ، فقد كتموا ما ورد فى كتبهم من البشائر المحمدية وهم يعلمون بورودها وذكرها فى كتبهم . والكلام فى هذا الباب مفصل فى (الجواب الصحيح) لشيخ الاسلام فعليك به فانه كتاب لم يؤلف مثله

القولُ على الله بلا علم

(الرابعة والتسعون) : القول على الله بلا علم ، وهو أساس كل فساد وأصل الضلال . وأكثر الناس حظاً من هذه الخصلة الجاهلية مبتدعةُ المتكلمين ، فقد تكلموا فى الصفات الإلهية بما لم ينزل الله به من سلطان ، وأوّلوا نصوص الشريعة بما تهواه أنفسهم ، كما فعله الرازى فى كتابه أساس التقديس وجزى الله شيخ الاسلام خيراً فقد ردّ عليه ونقض أساسه وسجل ضلاله وجهله وضيق أنفاسه ﴿ ولولا دَفْعُ اللهِ الناسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأرْض ﴾ (البقرة ٢٥١)

التناقض

(الخامسة والتسعون) : التناقض الواضح . قال تعالى (ق ٥) :

﴿ بَلْ كَذَّبوا بِالحقِّ لمّا جاءَهُمْ فَهُمْ فى أمْرٍ مَرِيج ﴾ وهكذا أهل البدع من الغُلاة وغيرهم يدّعون الاسلام ويعملون أعمالا تناقض ما هم عليه من الدين

الكَهانةُ وما فى حُكمها

(السادسة والتسعون - والسابعة والتسعون - والثامنة والتسعون - والتاسعة والتسعون - والمائة) : العِيافة ، والطَّرْق والطِيَرة والكَهانة والتَّحاكم الى الطاغوت ونحو ذلك . وقد تكلمنا على هذه الأمور فى كتابنا (بلوغ الأرب فى أحوال العرب) بما لا مزيد عليه ، وذكرنا هناك أوابدهم وخرافاتهم وسائر ضلالاتهم . وكل ذلك من أعمال جهلة المسلمين اليوم وهم يحسبون أنّهم يُحْسِنون صنعا

☆☆☆☆☆☆

وغالب مسائل الأصل رءوس مَسائلَ فى كتاب (اقتضاء الصراط المستقيم) ومن أراد التفصيل فليرجع اليه

وهذا آخر ما أردنا شرحه من المسائل التى أبطلها الإسلام . والحمد لله ولى الإنعام . والصلاة والسلام على خير الانام ومصباح الظلام وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان

فى ٥ ذى الحجة وهو يوم الخميس بعد الظهر من سنة ١٣٢٥ ه

فهرس

﴿ مسائل الجاهلية ﴾

